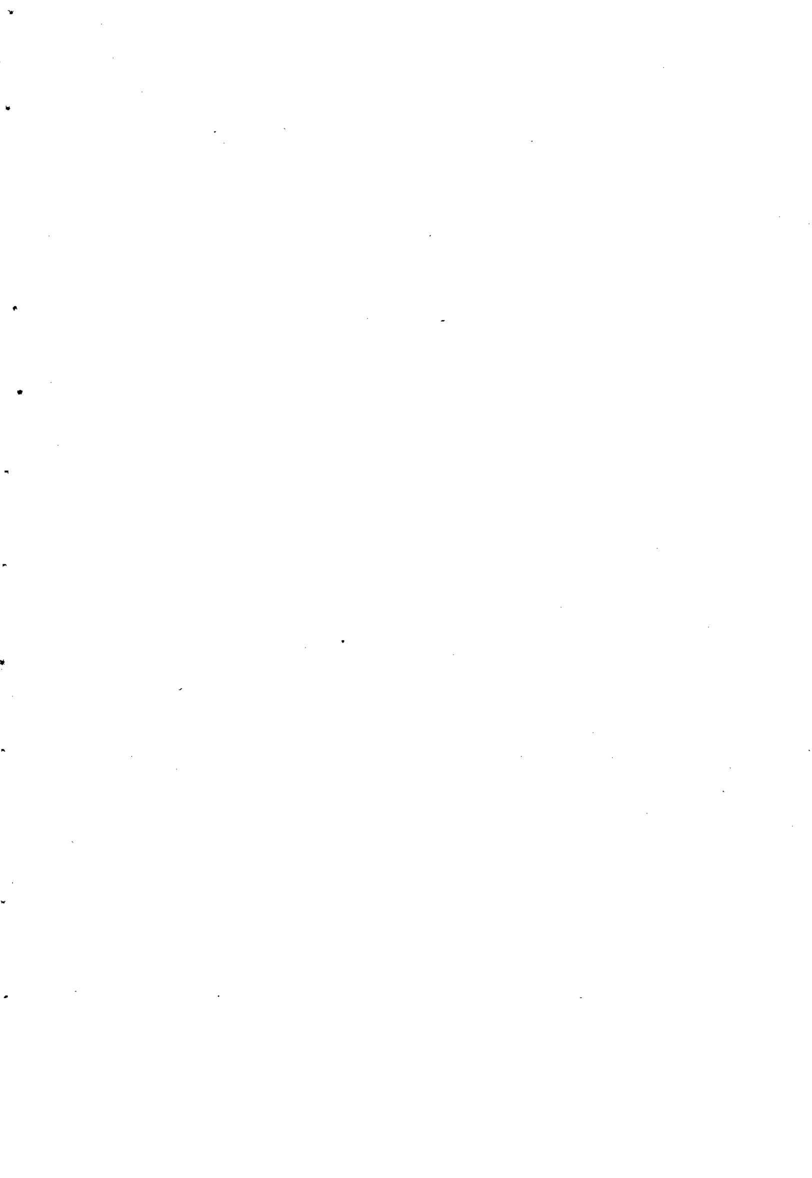
المملكة العربية السعودية
وزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامة
ادارة الشئون الدينية
قسم التوعيـة الاسـلامية

تناقض

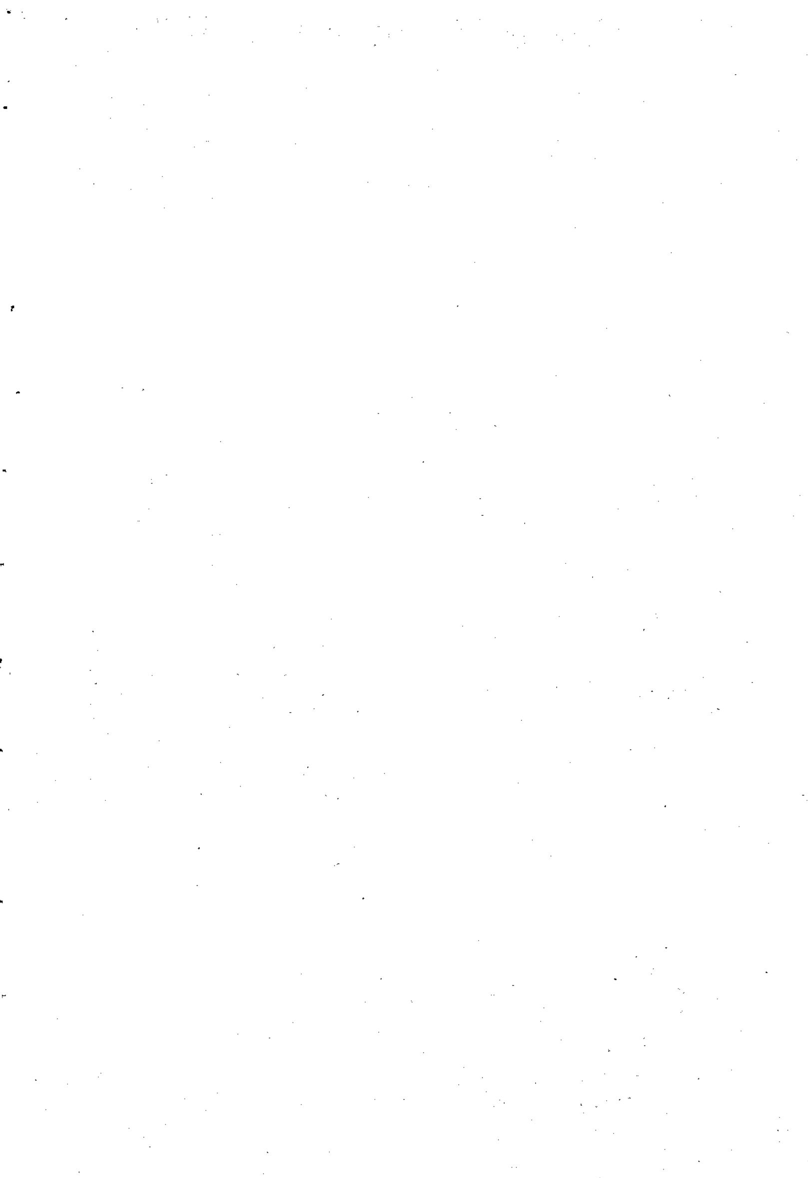
المذاهِبُ المادِّيَّة فيما يتَّصِل بقضِيَّة الأُلُوهِيَّة

دكتور محمد بلتاجي
الاستاذ المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة
والمعار الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

١٣٩٥هـ - ١٣٩٦هـ



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

يواجه المسلمون اليوم هجوماً مركزاً على تصوراتهم وأفكارهم مما حدا بكثير من أبناء المسلمين أن يعيش في دوامة من القلق والحيرة والضياع ، كل ذلك نتيجة الشكوك والشبهات التي صاغها له عدوه الماكر بقوالب براقة وأساليب جذابة وحيل خادعة كاذبة (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) .

ولم يقتصر العدوُّ في تشويهه للإسلام على جانب من جوانبه أو حكم من أحكامه فقط ، بل راح يشكك المسلم في تصوره وشعوره ، بل في أخص تصوراته ومشاعره ، — فيما يتصل بالألوهية .

وقد حمل لواء هذه الدعوة جمهرة المستشرقين من اليهود والنصارى وتبعهم المستغربون من أبناء المسلمين كتلاميذ نجباء أوفياء لأساتذتهم الخبثاء ! !

وهذه القضية — أعني قضية الألوهية — قد تناولتها المذاهب الإلحادية قديماً بالتحريف والتبديل .وتتعاورها

المذاهب المادية اليوم بالتشويه والتشكيك حيناً وبالتأويل والتبرير للشهوات حيناً آخر ، فكثيراً ما تخرج إلينا تأويلات لنصوص القرآن والسنّة – ممن باعوا ضمائرهم في سوق النخاسة لقاء عرض من الدنيا – يلوون لها عنق النص ليتفق مع سياسة حاكم أو شهوة طامع أو هوى مبتدع ضال ، حتى فيما يتصل بالتشريع والحكم والحاكمية .

ولخطورة هذا الموضوع ، وأهميته ، ألقى الدكتور محمد بلتاجي محاضرته – تناقض المذاهب المادية فيما يتصل بقضية الألوهية – في الموسم الثقافي لكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ٩٤–١٣٩٥هـ .

كشف فيها عوار المذاهب المادية – ممثلة بالرأسمالية الغربية والشيوعية الشرقية – وأوضح فيها تناقض تلك المذاهب فيما يتصل بالألوهية خاصة ، وخلص إلى نتيجة مهمة جداً وهي : إن ذلك الصراع وهذا التناقض فيما بين المذاهب المادية لا يعدو أن يكون إلا وثنية جديدة وجاهلية من نوع آخر فَضَّل أصحابها تأليه البشر على تأليه الحجر ، وعبادة الأفكار على عبادة الأشجار .

وقد تبنى قسم التوعية الإسلامية بإدارة الشئون الدينية طباعة هذه المحاضرة القيمة لأهميتها على نفقة وزارة الدفاع والطيران ، ليقوم بتوزيعها على المثقفين والمتعلمين من منسوبي القوات المسلحة . وليعم نفعها بإذن الله ، والله من وراء القصد ...

قسم التوعية الإسلامية

(تناقض المذاهب المادية فيما يتصل بقضية الألوهية)

— ١ —

مما لاشك فيه أن التبعية الفكرية مظهر واضح للتخلف ؛ لأن (التقدم)من شأنه المبادرة والسبق والريادة والتأثير . وهذه الأمور تدخل في مفهومَيْه اللغوي والاصطلاحي ، دونما فارق بين التقدم في الأمور المادية المحسوسة والتقدم الفكري والمعنوي .

لكن دعاة التبعية الفكرية والعَقدية في بعض بلادنا الإسلامية يحاولون تبريرها بأنهم إنما يقبلونها لتكون منطلقاً نحو التقدم وركيزة إليه ، فهم يصورونها على أنها تبعية مرحلية مؤقتة ينقلون فيها المنهج المتبوع الذي يزعمون أنهم سينطلقون منه — وبناء عليه — إلى السبق والريادة والمبادرة .

وهم يحاولون تبرير هذه التبعية أيضاً بأن الفكر البشري — في مجموعه — تراث مشترك بين بني الإنسان جميعهم يتداولهم فيه التأثر والتأثير في دورات متتابعة متداخلة ، فلا يعيب مجتمعاً منهم أن ينقل عن مجتمع آخر في زمن معين ؛ لأن هذا المجتمع المتبوع كان في وقت ما تابعاً لغيره ، بل قد

يكون قد بنى حضارته المنبوعة على ما نقله من أسلاف التابعين ، كما هو معروف مسلّم من أن الحضارة الأوربية التجريبية الحديثة قامت أصلا على ما نقله رائد وعصر النهضة الأوربية عن المناهج الإسلامية التجريبية التي قامت في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية تطبيقاً لآيات القرآن الكريم المتعددة التي أمرت بالنظر وندبت إليه ، وقد اطلع عليها رائدو عصر النهضة الأوربية عن طريق اتصالهم بالحضارة الإسلامية في الأندلس ، واحتكاكهم بها في الحروب الصليبية وفي أعقابها ، وعن طريق التبادل التجاري .

وهم يبنون على هذا قولهم : لا بأس إذن بأن نكون تابعين الآن للغرب الأوربي ، كما كان تابعاً لأسلافنا من قبل .

وأيضاً يصل بعض دعاة التبعية للغرب والشرق حينما يجادلون القوى الإسلامية في تبرير هذه التبعية إلى حد الاستشهاد ببعض النصوص الإسلامية مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم (الحكمة ضالة المؤمن ؛ فحيث وجدها فهو أحق بها) — وهو حديث صحيح رواه الترمذي وغيره .

لكن هذا كله مردود عليه بأن الأوربيين أخذوا المنهج التجريبي الإسلامي في النظر في الوجود المادي بعامة ، ولم يأخذوا ما صدر عنه هذا المنهج من عقيدة ، بل اقترن ذلك عندهم بشدّة الحرب للعقيدة والأفكار الإسلامية . بل إنهم استخدموا نتائج تطبيق المنهج التجريبي في محاولة

القضاء على الإسلام كعقيدة ونظام حياة . بطرق الاستعمار المتعددة التي اعتمدت على التفوق التكنولوجي في الصناعة والمخترعات .

أما هؤلاء التبعيون الذين يعيشون في بعض البلدان الإسلامية فإنما تبعهم في العقائد والأفكار والمناهج الأيديولوجية ، لا في المنهج التجريبي الذي يؤدي إلى التقدم الصناعي ، والذي لا يجادل أحد من القوى الإسلامية الفاقهة لمقررات الإسلام في مشروعية الأخذ عنه ، بل وجوب ذلك في أسرع وقت .

أما مناط الجدل فهو أن يقترن ذلك بالتبعية الفكرية في الأفكار والمبادئ والأيديولوجيات الاعتقادية . وهو ما ترفض القوى الإسلامية مبدأ الأخذ فيه عن غير الإسلام . بصورة مطلقة .

أما فيما يتصل باستشهاد هؤلاء بالنصوص الإسلامية مثل حديث (الحكمة ضالة المؤمن ...) فإنما هو استشهاد على الشيء بدليل يقوم على صحة نقيضه ؛ لأن المفهوم الإسلامي للحكمة – وهو ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعاً – إنما هو ما يتمشى مع مقررات الإسلام ونصوصه ، ولا يتصادم معها ؛ بل يمثل درجة عالية فيها . وهذا ما لا يصدق بحال على ما يتابعون فيه الأجنبي من قيم وأفكار ومبادئ . وإلا فهل يمكن أن يكون النبي صلى الله

عليه وسلم قد قصد بمفهوم (الحكمة) في حديثه ما يتصادم مع الإسلام ويسعى لهدمه ؟ .

إن هذا الاستشهاد – وأمثاله – مما يلجأ إليه التبعيون في بعض البلدان الإسلامية لترويج تبعهم للأجنبي بين الناس – يتضمن من التلاعب غير الشريف ما يحمل على ازدرائه وإهماله .

أما حجتهم القائلة بأنهم يأخذون تبعيتهم للأفكار الأجنبية كمنطلق نحو التقدم وركيزةٍ إليه – فإن هذا كان يصحُّ لو كانت القوى الإسلامية تسلِّم لهم بأن هذه الأفكار الأجنبية – على اختلاف تياراتها – تصلح ركيزة للتقدم أو مقياساً له ، وذلك مالا يمكن أن تسلم به القوى الإسلامية بحال ؛ لأنها حين تفعل ذلك فإنها تتخلى عن الإسلام ذاته – في حقيقة الأمر – لأن كافة التيارات والمذاهب والنظم الفكرية والاقتصادية والسياسية التي لا تنتمي إلى الإسلام انتماء حقيقياً ولا تنبع منه لا يمكن أن تسمى (إسلاماً) بحال ؛ لأن الإسلام إنما هو القرآن والسنة وما قام عليهما من فكر ونظر واجتهاد ، وكل ما خرج عن هذه الدائرة واتخذ له منطلقاً آخر فهو (غير إسلامي) ، ومتى وُصف بهذه الغيْريّة فقد استحال – في منطق القوى الإسلامية ويقينها – أن يكون منطلقاً نحو التقدم أو ركيزة له أو مقياساً عليه .

والذي أردته من هذا التقديم هو أن يتبين لكل الناس أن (الإسلام) لا يقبل الشركة في منطلقه أو مفاهيمه كلها ، فعلى الذين يولون وجوههم نحو غيره في مجال العقائد والأفكار — تحت أي شعار — أن يكفوا عن محاولة تزييف بعض التعليلات الباطلة لتبرير وجهتهم أمام جمهور المسلمين فهم قد اتبعوا غير طريق المؤمنين ، فما تربطهم بالإسلام غير أسماء وأشكال لا صلة لها في ذاتها بالعقيدة الباطنة واليقين .

على أن هناك ظاهرة هامة وخطيرة في فكر هؤلاء التبعيين ؛ هي أنهم يتلقون عمن يتبعونهم قوالب وأنماطاً فكرية نبعت عن التاريخ الأوربي الخاص وصدرت عن أوضاع معينة كانت فيه ، ومن ثم لا تنطبق بحال على غير البلدان الأوربية أو ما يماثلها في التاريخ الخاص ، لكن هؤلاء التبعيين يتملكهم الانبهار الأعمى بما تبعوا له من تيارات الفكر الأوربي الحديث ، فيأخذونه قوالب جاهزة يتوهمون فيها صفتي العمومية والشمول لكل أوضاع البلدان في أنحاء العالم — ومنها البلدان الإسلامية — فتراهم يحاولون بطرق الاعتساف المزري أن يطبقوا أفكار سادتهم على التاريخ والأوضاع الاسلامية . فهم قد كفروا بالعمومية

والشمولية والخلود في النصوص الدينية ، لكنهم أحلّوا بدلها الإيمان بهذه الصفات فيما تلقوه عن سادتهم من نظريات نبعت من أوضاع خاصة في المجتمعات الأوربية ، ولا تنطبق على غيرها من البلدان — بحكم اختلاف التاريخ والأوضاع والعقيدة — بل إن الفكر الأوربي في مجموعه لا يسلم بصلاحية هذه النظريات لتفسير التاريخ الأوربي ذاته بصورة دقيقة .

وفي هذا نشير إلى أتباع (التيار المادي الإلحادي) الذين يطلقون على أنفسهم (التقدميين) أو (أحرار الفكر) أو (المناضلين) أو (طلائع التقدم) كنوع من التعمية والتجهيل بحقيقة انتمائهم بالعمالة والتبع للشيوعية الدولية والمادية الجدلية التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

فقد خرج علينا واحد من هؤلاء منذ سنوات بما زعمه إعادة كتابة للتاريخ الإسلامي في عصر النبوّة والصحابة ، فإذا به قد طبق منهج أستاذه ماركس في اعتبار (الصراع الاقتصادي بين الفقراء والأغنياء) هو العامل الأساسي في تحريك الصراعات والثورات وكافة التطورات الاجتماعية ، ومن ثم كتب هذا التابع تاريخ صدر الإسلام بناء على منطلق يرى أن الديانات كلّها — ومنها الإسلام — لم تكن إلا ثورات بشرية تمثل صدى الصراع بين الفقراء والأغنياء على مصادر الإنتاج الاقتصادي ، فإذا به يحدثنا عن (اليمين

الإسلامي) ممثلا – في زعمه – ببعض الصحابة ، و (اليسار الإسلامي) ممثلا في بعضهم الآخر ، وإذا به يزيف النصوص ووقائع التاريخ الإسلامي الثابتة ، ويتأولها تأويلات واضحة البطلان – ليصل من هذا كله إلى أن الإسلام لم يكن ديناً موحى به ، إنما كان مجرد ثورة بشرية من اليسار الفقير على اليمين الغني . وقد نحّى فيه هذا التابع العميل كل أثر غير بشري في نشأة هذا الدين ؛ لأنه – تبعاً لماركس – لا يؤمن بوجود الله ، إنما هو يؤمن فحسب بالصراع الاقتصادي كعامل رئيسي وراء كافة أحداث التاريخ البشري .

ومن المحزن حقاً أن تابعاً آخر يقوم بالعمالة مثله قد استطاع في غفلة المراقبين – وفي ظل ظروف خاصة – أن يوجز مفهوم هذه الدراسة كلها في (أغنية) جعلها تشيع على ألسنة الغافلين من السّوقة وقتاً ما ، سمّي فيها الإسلام ثورة شعبية ، وسوّاه في أغنيته هذه بالفن والعلم المادى الذي أطلق على كل منهما أيضاً اسم : الثورة الشعبية ! .

وقبل ذلك بسنوات ، فإن كاتباً قصصياً آخر ، يراه بعض الناقدين أحسن من كتب الرواية العربية المعاصرة – طلع علينا بقصة طويلة سماها (أولاد حارتنا) عبّر فيها بأسلوبه الخاص عن نفس الفكرة المادية السابقة القائلة بأن (الإسلام) – ومثله بقية الديانات الموحي بها – لم يكن

إلا ثورة بشرية مادية صنعها زعيم ذو قدرات خاصة بمحض جهده البشري . وبعد أن طبق الكاتب هذه الفكرة المادية الماركسية على الإسلام وما سبقه من ديانات ، انتهى إلى القول بأن (العلم المادى التجريبى) الذي رمز له بشخص سماه (عرفة) قد أبطل الفكرة الدينية القائلة بوجود إله مهيمن على الكون . حيث انتهى عرفة – كما زعم هذا – إلى منزلة الألوهيـــة فلم يجد فيها أحـــداً ، فحلّ هو هناك قائداً للبشرية . وبهذا انتهى الكاتب من روايته الطويلة – التي تقع في مئات الصفحات – إلى التبشير بالفكرة المادية القائلة بأن العلم المادي التجريبي أبطل القول بوجود الإله ، وحلّ هو محل الديانات والنبوات في قيادة البشرية وسيرها الحثيث نحو التقدم ! .

وهكذا ينتشر التبعيون للفكر المادي الإلحادي في بعض بلاد المسلمين ، وقد تلقوا عن سادتهم الأوربيين قوالب فكرية جاهزة في تفسير التاريخ البشري والنبوات ، بأنها مجرد جهود بشرية بذلت في ميدان الصراع الدائم على وسائل الإنتاج الاقتصادي . وقد أخذ هؤلاء التبعيون على عاتقهم مهمة تدمير الاعتقاد الديني في قلوب مواطنيهم بأخبث الأساليب غير المباشرة . من الزعم بإعادة صياغة التاريخ . واستخدام كافة أساليب التعبير الفني والأدبي من الأغنية ، والتمثيلية ، والرواية ، وغيرها .

وهم – حتى في هذا الأسلوب غير المباشر – مجرد أتباع لما خططه لهم سادتهم الماديون الماركسيون في أوربا ، هؤلاء الذين يعلمون أنّ أسلوب التصادم المباشر مع معتقدات الجماهير المسلمة أمر يكشفهم ويجلب عليهم الخسارة دائماً ؛ ومن ثم هم يلجؤون إلى الأساليب الفنية والأدبية غير المباشرة التي تجعل الأفكار الإلحادية – كما يأمل هؤلاء – تتسرب شيئاً فشيئاً إلى وجدان الجماهير ومعتقداتهم . وقد تكرر هذا المخطط في كتابات المنظّرين الماديين الماركسيين ، وعبرت عنه مجلة (كومونيست) السوفياتية في عددها الصادر في أول يناير عام ١٩٦٤م حين قالت تعلّم أتباعها : ستظل العقيدة الشيوعية في نزاع مع العقيدة الدينية حتى تسود الشيوعية على الدين ، فإذا اقتضت بعض مراحل تحويل المجتمعات تعايشاً مع العقيدة الدينية فذلك من قبيل التدبير الماركسي المؤقت ؛ لأن بين الشيوعية العامية والأديان السماوية صراعاً مستمراً ؛ لأن جوهر الدين وأساسه كله معاد للشيوعية .

– ٣ –

... وبعد ، فهذا وجه من وجوه الغزو الفكري الذي تقوم به المادية الملحدة – بواسطة تابعيها – في بعض البلدان الإسلامية . وقد قصدنا من عرضه أن نبين خطورة هذا التبع وما تهدف إليه جهوده من رد المسلمين عن دينهم

وتحويل وجوههم شطر (المادية الملحدة) تحت شعارات من (العلمية) و (التقدمية) و (التطور) .

وأساس هذا التحويل يكمن في (قضية الألوهية) ؛ لأن بناءهم المادي كله ينهار دفعة واحدة بإثبات وجود الإله الخالق ؛ لأن تنظيماتهم ومقرراتهم كلها تنبني على جحد وجوده والكفر به ، فحيثما ثبت وجوده تعالى وخلقه للعالم فقد انقضّ بناؤهم العقدي كله في تفسير التاريخ والوجود المادي جميعه .

وبداهة فإن منهج مناقشتهم بالنصوص الدينية وحدها منهج يظهر المسلم بمظهر العجز عن مطاولتهم بمنهج العلم المادي التجريبي ؛ لأنهم لا يؤمنون أصلا بوجود الله تعالي حتى يمكن أن يؤمنوا تبعاً لذلك بالوحي والنصوص الدينية ، فليس لها عندهم أية قداسة أو إلزام أو حجية .

وإذن فلا بد من منهج آخر لمجادلتهم ، فما هو هذا المنهج ؟ الحقيقة أنهم هم الذين اختاروه حين سموا إلحادهم (مادية علمية) وأعلنوا أن العلم التجريبي هو الذي نقض عقيدة وجود الله ، وحل هو محله في قيادة البشرية وتوجيه أمورها .

وقد ارتضينا هذا المنهج نفسه في الفحص عن حقيقة دعواهم هذه : فهل صحيح أن العلم المادي التجريبي

يؤدي بالضرورة – كما يقولون – إلى التسليم بعدم وجود الله ؟

إننا في الحقيقة بعد فحص هذه الدعوى نرى أنه على النقيض من ذلك تماماً : فإن العلم المادي التجريبي هو الذي ينتهي بالضرورة إلى التسليم بوجود الخالق الفاطر العظيم ، وهو الذي ينتهي أيضاً إلى أن إنكارهم لوجوده تعالى هو الذي يوقعهم في تناقض منهجي محتوم لا ملجأ منه إلا بالتسليم للمؤمنين بصحة منهجهم الاعتقادي في وجود الله تعالى . وذلك على التفصيل التالي :

– ٤ –

أما فيما يتصل بدعواهم أن العلم المادي التجريبي قد انتهى إلى نفي وجود الخالق ، فتلك دعوى بالغة البطلان إلى أقصى حد يمكن أن يتصوره الناس . وإنما كان لهذه الدعوى شيء من التعلق الظاهري ببعض النظريات العلمية غير الدقيقة التي اكتشفت في القرن الماضي ، وروّج لها الملحدون وبنوا عليها قولهم المنكر للخالق . وما يفعل أتباع المادية المعاصرون غير أن يجترّوا بعض الأفكار الإلحادية التي عاشت في القرن الماضي في أوربا ، فيصورونها على أنها هي العلم الحديث – كما فعل صاحب رواية (أولاد حارتنا) – لكن النظريات العلمية المعاصرة بحق قد نقضت هذه الفروض السابقة وأحلت محلها علماً آخر لا يدع مجالا للشك في وجود الخالق الفاطر العظيم .

ولسنا ـ والحمد لله ـ ممن يتكلف القول فيما لا يعلم أو يفهم ؛ لأننا نتبع التوجيه القرآني (ولا تقف ما ليس لك به علم) الإسراء ٣٦ ، ومن ثم لن نعرض لنظريات في العلم التجريبي تحتوى أموراً لم نتهيأ لدراستها وفقهها ، إنما سنقصر القول على أمور نفهمها ونلم بما قامت عليه بصورة عامة ، فنقول :

كان من المسلّم به أن الوجود المادي تحكمه أربعة أبعاد يتكون منها ، هي : المادة ، والطاقة ، والمكان ، والزمان . وهي أمور متداخلة في حقيقتها مقترنة بعضها ببعض تشكِّل في مجموعها ما يسمى (الوجود المادي) . وأول سؤال يفرض علينا نفسه في هذا المجال هو : هل هذا الوجود المادي بما يحتويه (أزليّ) لا أول له ، أم هو حادث له بداية لم يكن موجوداً قبلها ؟ .

وقد ظلت الفلسفة المادية منذ آلاف السنين وحتى وقت قريب جداً تلغط بأن هذا الوجود المادي أزلي قديم لا أول له ولا بداية ، فلم يكن في وقت ما عدماً ؛ لأن المادة وُجدت دائماً ، وطاقتها التي تتخلّق بها الأشياء وتتغير كانت ملازمة لها دائماً ، وهكذا وُجد المكان دائماً ، واستتبع ذلك أزلية الزمان الذي اقترن بهذه الأشياء فليست له بداية .

والسبب وراء إصرار المذاهب المادية المتابعة على أزلية الوجود معروف واضح ، وهو أن القول بذلك يؤدي إلى

القول بعدم الحاجة إلى وجود الخالق ضرورة ؛ لأن الوجود المادي عندئذ لا يكون بحاجة إلى من أوجده ؛ لأن هذه الحاجة تنبع من الإقرار أولا بحدوثه وسبق العدم عليه ، وهو ما كانت هذه المذاهب المادية تنفيه في إصرار متتابع جيلا بعد جيل ، على اختلاف أسماء وأشخاص هذه المذاهب .

فإذا تقرر عندهم أن الوجود أزلي قديم ، وانتفى وجود الخالق الفاطر فقد انتفى تبعاً لذلك الدين بكل مفاهيمه من وحي ورسل وبعث ؛ لأن ذلك كله فرع عن الإقرار السابق بالألوهية . وهكذا كانت التيارات المادية ترفض الدين .

وكانت التيارات المؤمنة ترد القول بأزلية الوجود المادي بناء على استدلالات منطقية جديرة بالقبول العقلي ، مثل القول بأن الصور التي تتجلى فيها المادة وتتشكل قابلة للتغير والفناء والحدوث ، وإذن فهي حادثة ؛ لأن مادة الشجرة مثلا تتغير من نبتة صغيرة جداً ، وتكبر تدريجياً شيئاً فشيئاً حتى تستوي شجرة كبيرة ذات فروع وأغصان ، ثم يؤخذ جذعها وبعض فروعها وأغصانها لتتحول إلى منضدة : وقد يعاد فك هذه المنضدة لتتحول بصنعة صانع إلى كرسي مثلا ، ثم إلى صندوق خشبي ... وبعد أن تتشكل في أشكال أخرى متتالية يمكن أن توضع في المدفأة لتحرق أخشابها

وتتحول إلى طاقة حرارية ودخان وبعض رماد يمكن أن تدخل كلها في أجساد أخرى لتسهم في تكوين مادة أخرى .. وهكذا . فصور المادة تتغير وتفنى ويحدث غيرها ، ولما كان الوجود مكوناً من مادة وطاقة في إطار من المكان والزمان ، والنظرية المادية تقول إن هذا الوجود كله أزلي بكافة مكوّناته ، ثم إنه قد ثبت من المثال السابق أن صورة المادة (وهي ما يلابسها من طاقة وقدرة وإمكان تشكل) قابلة للتغير ، فهذا دليل على أن المادة نفسها حادثة ؛ لأن المادة لا توجد أبداً إلا في صورة . فهما متلازمتان – وهذا ما يسلم به الفكر المادي – وكل ما ثبت أن له آخراً بحكم تغيره وحدوثه في صورة جديدة ، فلابد أن يكون له أول ، وحيث ثبت أن للمادة مبتدأ – تبعاً لصورها المتغيرة ذات الأول والآخر – فإن هذا يؤدي ضرورة إلى أن يكون للمكان بداية وللزمان بداية ؛ لأنهما لايوجدان إلا بوجود المادة المقترنة بطاقتها المتغيرة الأشكال والصور .

وهكذا كان الفكر المؤمن بالله ينقض القول بأزلية الوجود المادي ؛ بالاستدلال المنطقي الجدير بالقبول والاعتبار

وقد جاءت في القرآن الكريم آيات تثير الأفكار وتنبهها بطريق غير مباشر إلي أن فكرة (التغير) تتنافي مع فكرة (الأزلية) ، لأن التغير يتضمن في داخله حدوثاً متتابعاً ينبه إلى أن له بداية . كما ورد ذلك في قوله تعالى

(وكذلك نرى إبراهيمَ ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لا أُحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إني برئٌ مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) الأنعام ٧٥-٧٩ ؛

ويجب أن نلاحظ دائماً أن الصياغات القرآنية تختلف عن صياغات الجدل في الفلسفة والمنطق البشريين ؛ لأن القرآن نزل إلى الناس كافة المتعلم وغير المتعلم ؛ فليس كتاباً خص به الفلاسفة والمنظِّرون ومحترفو الجدل ؛ إنما هو كتاب ينبه الأفهام إلى الأمور في صورة ميسَّرة ، بحيث يفهم منه كل واحد من البشر على قدر عقله وعلمه ونظره ، وهو يتسع لذلك كله ويستوعب في نصوصه أعظم قدر من الجهد البشري في الفهم والتفسير ، ثم لا يصل إنسان قط — مهما بلغ — إلى غاية تنفد عندها معاني النص القرآني . وذلك وجه من الإعجاز التعبيري في القرآن الكريم لا يتسع المجال لتقريره .

ومهما يكن من أمر ، فقد وقف المؤمنون بالله على مر العصور ينقضون بكل طريق للنظر العقلي عقيدة الماديين

في أزلية الوجود المادي ، فما الذي انتهى إليه العلم التجريبي الحديث في هذه القضية الأساسية البالغة الخطورة ؟

لقد كشف هذا العلم بواسطة المشاهدات والتجارب المادية ــ بعيداً عن كافة أشكال الاستدلال النظري المجرد المتعارض ــ عن قانون هام جداً حسم الأمر في هذه القضية ، أعني (القـانون الثاني للحرارة الديناميكية) Second law of thirmo dynamics ويسمى هـذا القانون الطاقة المتـاحة أو (ضابط التغير (١) ، وهـذا القانون يثبت أن الطاقة في الكون تقل تدريجياً بصورة مطردة ؛ حيث تنتقل الحرارة فيه دائماً من (وجود حراري) إلى (وجود حراري أقل) ، مع استحالة أن يحدث العكس فتزيد الطاقة المتاحة في الكون ؛ لأنها تنتقل من وجودٍ إلى (وجود أقل) بصورة تدريجية مطردة .

لكن ، كيف يثبت هذا الكشف حدوث الكون المادي ؟

---

(١) راجع في هذا القانون بحوث (فلننظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز) للدكتور إدوارد لوثر كسيل ، و (نشأة العالم : هل هو مصادفة أو قصد ؟) للدكتور فرانك آلن ؛ و (موجهات جيولوجية) للدكتور دونالد روبرت كار . وبحثاً آخر للدكتور كلود م. هاثاواى في مجموعة (الله يتجلى في عصر العلم) الذي أشرف على تحريره جون كلوفر مونسما ، وترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، نشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة ١٩٦٨ م .

القضية ببساطة هي أن هذا القانون يثبت أن الكون المادي لابد أن ينتهي إلى نوع من الخمود والفناء يتوقف فيه نشاطه المعتاد وتختل الوظائف الطبيعية فيه . وذلك حين تنفد الطاقة التي يفقدها تدريجياً بحكم استمرار العمليات الكيميائية والطبيعية فيه . وهذا يثبت قطعاً وضرورة أن لهذا الكون بداية ؛ إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ وقت بعيد جداً .

وكمثال تقريبي على هذا فإننا لو قلنا إن فلاناً ينفق كل يوم دينارا بصورة مطردة مستمرة ، من مال معه لا يزيد أصله ، فمهما يكن عظم ما معه من مال فلابد من أن ينفد يوماً ما . هذا أمر ضروري بداهة . وهناك أمر آخر ملازم له ومرتبط به بحكم الضرورة أيضاً ؛ وهو أنه لابد أن يكون لوجود المال معه بداية ، إذ لو كان وجوده معه أزلياً لنفد منذ زمن بعيد ؛ لأنه مهما يكن عظم هذا المال وضخامته فالأزل أكبر منه بما لا يقاس ؛ لأن الأزل غير محدود ؛ إذ لا بداية له . أما هو فمهما يبلغ في العظم والكبر فهو محدود معدود ، فكان لابد أن يفنى من قبل .

ويصور لنا هذه الفكرة السير جيمس جينز أكبر العلماء التجريبيين المحدثين حين يقول . في كتابه (الكون

الخفي(١) : « تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلها ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ؛ لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض نفكر فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لابد لها من نهاية ، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقت ما) حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً » . ويقدر العلماء أن هذا الكون نشأ منذ خمسة آلاف بايون سنة $\frac{٥}{١٢}$.

والحقيقة أن أعظم العلماء التجريبيين لا يملكون وسيلة قاطعة لتحديد عمر الكون المادي بصورة حاسمة دقيقة ؛ فبعد أن ثبت لهم بطلان القول بأزلية الكون المادي سلكوا عدة مسالك في محاولة تقدير عمره بصورة تقريبية ، وأحسن ما وصلوا إليه — فيما نعلم — هو طريقة (قياس الإشعاع) ، فبعد كشف العناصر المشعة وجد أن الذرات الكهربية تخرج منها بنسبة معينة بصفة دائمة مطردة في صورة تحلل مستمر . ولما كانت مادة (اليورانيوم) — وهو أحد هذه العناصر المشعة — تتحول إلى معدن الرصاص تدريجياً نتيجة لهذا التحلل المستمر — فإن العلماء — بطرق خاصة دقيقة

---

(١) The Mysterious Universe. P. 133 راجع كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان ص ٥٥ — ٥٦ .

لا نزعم أننا نلم بها – أمكنهم قياس الزمن الذي مر على هذه المادة منذ وُجدت . ثم انتقلوا من ذلك إلى محاولة تحديد عمر الأرض . ثم عمر الكون المادي الذي تقع الأرض كجزء صغير جداً منه . وهناك تقديرات مختلفة للعلماء ، في ذلك ، لكنها متقاربة تقارباً نسبياً ، وهي أقرب إلى باب الظن والاستنتاج بالشواهد . منها إلى باب اليقين الحاسم القاطع . وبعضهم يقدر عمر الأرض ببليوني سنة (ألفي مليون سنة) ، وبعضهم الآخر يقدر عمرها بأكثر من هذا بخمسمائة أو ألف مليون سنة . ويقولون إنها كانت قبل هذا جزءاً من الشمس انفصل عنها بوسيلة يتكهن العلماء بها في فروض مختلفة . أما عمر الكون المادي نفسه فهم يقدرونه – كما سبق – بخمسة آلاف بليون سنة .

وكل هذه التقديرات أدخل في باب الفرض والخرص منها في باب اليقين الدقيق والحسم . وصدق الله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذا المضلين عضدا) الكهف ٥١ .

ومهما يكن من أمر فإن أحدث الكشوف العلمية التجريبية قد قطع بطريق اليقين بأن هذا الكون المادي ليس أزلياً ، إنما هو محدث ، وإن اختلف العلماء بعد ذلك شيئاً ما في تحديد زمن بدايته ، فإنما اختلافهم النسبيّ في ذلك كاختلافهم في تحديد عمر إنسان بمجرد النظر إليه

والاستدلال بالشواهد فيه بين خمسين وخمسة وأربعين وأربعين عاماً ؛ حيث لا يمس الاختلاف النسبي أصل اتفاقهم على أنه كانت لمولده بداية .

وإذن فإن أحدث الكشوف في العلم المادي التجريبي قد انتهت إلى تأييد (الدين) بصورة قاطعة حاسمة في قضية عدم أزلية الكون المادي ، فبطلت كل دعاوي الماديين الملحدين واستدلالاتهم النظرية السابقة في القضية . بل إن نفس هذا القانون (القانون الثاني للحرارة الدنياميكية) قد أيّد الدين ضمنياً في قضية أخرى لا تقل أهمية عن قضية أزلية الكون أو حدوثه ، وهي قضية (حتمية القيامة والآخرة) ؛ حيث أصبح من المقرر تجريبياً تبعاً له أن العالم يسير بطريقة حتمية مطردة — إلى حيث لا تكفي طاقته لاستمرار وظائفه الطبيعية والكيميائية ، فيختل نظامه الحالي وتحدث الظواهر التي حدثنا عنها القرآن الكريم منذراً بالقيامة والساعة من تكوير الشمس ، وانكسار النجوم ، وتسيير الجبال ، وتسجير البحار ، وانفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وتمدد الأرض ، وانشقاق السماء .. إلى غير ذلك مما ذكره القرآن الكريم عن اختلال النظام الكوني حيث الساعة .

وحيث ثبت حدوث الكون المادي على النحو السابق — فإن هذا يثبت بالضرورة وجود الخالق المريد القادر العليم ؛ لأن أمر بدء الكون بعد عدم لابد أن يكون نتيجة لأمر صدر عن خالق عظيم القدرة والعلم . ذلك الذي حقق إرادته بإيجاد هذا الكون المادي الذي تصل ضخامته وسعته إلى حد يجاوز قدر التصور العقلي عند البشر . وهو أمر ثبت بصورة قاطعة بالكشوف الفلكية الحديثة التي وصلت إلى أن أبعاد هذا الكون المادي تستعصي على القدرة البشرية في الإدراك والإحاطة والتصور . فضلا عن الوصول العملي إلى دناك . ويكفي أن نعلم أنه قد أصبح مقرراً في العلم التجريبي عند المؤمنين والملحدين على السواء أن الإنسان لو حقق مستحيلين على البشرية هما : أن يعيش ملايين السنين ، وأن يتوصل إلى وسيلة تنقله في الكون بسرعة الضوء (١٨٦,٠٠٠ في الثانية الواحدة) — فإنه لن يستطيع مع هذا أن يصل إلى أبعاد الكون ونهايته ؛ لأنها بالنسبة لإمكانات البشر الحالية والمتوقعة أشبه باللانهائية(١) .

فالتفكير السليم إذن لابد أن ينتقل من حقيقة حدوث الكون إلى ضرورة أن يكون لهذا الحدوث موجد عظيم قادر وهو الله تعالى ؛ لأن الكون المادي يستحيل أن يوجد نفسه

---

(١) راجع : نسبية أينشتين عن الكون .

بنفسه ؛ لأن الإيجاد إيجابية وفعل وإرادة وقصد وقدرة مقترنة بعلم شامل ؛ وذلك كله لايمكن أن يكون من صفات العدم المطلق : أو لم يكن الوجود المادي قبل إيجاده عدماً مطلقاً ؟ فكيف تنبثق في العدم المطلق إرادة الإيجاد والقدرة عليـــه ؟ .

ومن هنا فإن العلم المادي التجريبي حينما يتمشى مع منطق العقل فإنه لابد أن يبني التسليم بوجود الله الخالق على ثبوت عدم أزلية الكون . وهذا ما يقر به العلماء التجريبيون الذين لا يلتزمون بمبدأ أو نظام يفرض عليهم تطويع كافة علومهم لمقررات الإلحاد وإنكار القيم الدينية ، كما هو الحال عند العلماء الذين يعيشون في ظل أنظمة شيوعية تتعبد بقيم الماركسية البالية وليدة القرن التاسع عشر الميلادي في أوربا ، بكل ما احتواه من قصور في العلم التجريبي والغرور الكاذب من بعض مفكريه في قضايا الوجود والخلق ، كما سنرى قرب ختام هذا البحث .

ومن هنا رأينا العالم الأمريكي المعاصر إدوارد لوثركسيل في كتاب (تجلي الله) The evidence of God يقول : « وهكذا أثبتت البحوث العلمية — دون قصد — أن لهذا الكون « بداية » فأثبتت تلقائياً وجود الإله ؛ لأن كل شيء ذي بداية لايمكن أن يبتدىء بذاته ، ولابد أن يحتاج إلى

الكون ، ثم انفصلت عنها الأرض نتيجة لاصطدام وقع بين الشمس وسيّار كوني آخر لا يدري أحد عنه شيئاً ـ إنما هو محض الافتراض ـ وكان هذا الصدام منذ نحو ألفي مليون سنة ، ثم أخذ سطح الأرض يبرد تدريجياً حتى تماسكت ، وأخذت العناصر تتجمع على سطحها وتختلط . حتى حدث «بطريق « المصادفة البحتة » أن اجتمعت عناصر معينة وتفاعلت بمحض الصدفة ، فصادف تجمعها ظروفاً ملائمة لنشأة الحياة على الأرض ، فانبعث من هذه الظروف جرثومة الحياة الأولى ، التي نمت وتفرعت وتطورت تلقائياً حتى وصلت إلى النبات والحيوان والإنسان ، متأثرة في ذلك كله بعوامل البيئة المادية وتطور الأجناس الطبيعي .

هذه هي ـ في تركيز ـ ملخص دعوى الماديين في أصل الكون ونشأة الحياة ، وهذه هي منتهى (العلمية) في تفكير منظّريهم حينما يجادلون المؤمنين . فما نصيب هذه الدعوى من التفكير العلمي الممحص بحق ؟

مما لا شك فيه أن اللجوء إلى هذه (المصادفات) والإحالة إلى هذه (المجاهيل) المتتالية في كل خطوة من خطوات الافتراض السابق يناقض كل مفهوم للتفكير العلمي المنضبط ، ويدخله في باب الأساطير القديمة التي كانت تقال لتسلية الأطفال والتحليق بهم في باب الأحلام والخيالات لدفع النعاس إلى أجفانهم ؛ فقد كانت هذه الأساطير القديمة

الموجود الأول ـ الخالق الإله »(١) . وهذا المعنى نجد عشرات الأقوال في تأييده من كبار رجال العلم المادي على اختلاف فروعه .

لكن التيار المادي الإلحادي لم يلق سلاحه بعد إزاء هذا الاستدلال الواضح الضروري فما تزال في جعبته البالية أوهام وتخييل يحاول أن يقيم عليها إنكاره للخالق ؛ ذلك أنه بدلا من أن يماشي منطق الاستدلال الواضح الذي يربط حدوث الكون بضرورة أن يكون له محدث موجد ـ فإنه يلجأ إلى فكرة (المصادفة) كمخرج له من ضرورة الإقرار بالله ؛ ويصوغها على النحو التالي فيقول : صحيح أن الكون المادي لم يكن موجوداً في صورة نجوم وكواكب وسيارات كالتي نشاهدها ، فتلك حادثة قطعاً ، لكن « شيئاً ما » يمكن اعتباره أساساً للمادة كان موجوداً قبلها ، فحدث « شيء ما » فجأة لسبب مجهول ، فأدت الصدفة البحتة إلى نوع من الاضطراب في الأساس الذي نشأت عنه مادة الكون الحالية ، فنشأت عن هذا الاضطراب ظروف مواتية أدت إلى تخليق الكواكب والسيارات في مجموعات كبيرة ، ما لبث أن انفصل بعضها عن بعض بقوة دفع الاضطراب المتتابع الأثر ، فنشأت الشمس ضمن مجموعات

---

(١) أنظر : الإسلام يتحدى ص ٥٥ وبحث (فلننظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز) المشار إليه من قبل ، ص ٢٧ .

أيضاً – كما سمعناها في صغرنا من الجدات الطيبات في ليالي الشتاء الطويلة – تحتوي هي الأخرى على هذا اللون من المصادفات المتتالية التي كانت تنتهي دائماً بزواج (الشاطر حسن) من (بنت السلطان) بعد أن تنقذه المصادفة مرة بعد مرة من المكايد التي كان يعدها له (الغول الشرير) ليحول دون زواجه منها حيث كان لقاؤهما الأول نفسه نتيجة لصدفة طريفة تقوم عليها الحكاية ، وتستمر قائمة عليها في كل موقف منها .

على أنه ينبغي أن نعتذر للجدات الطيبات على هذا التشبيه ؛ لأنهن كن يقصدن زرع قيم الخير والإيمان بالله في نفوسنا ، أما هؤلاء الأسطوريون (العمليون) فإنما يقصدون إلى النقيض من ذلك تماماً حيث يهدفون إلى زرع الكفر بالله – سبحانه وتعالى – في نفوس الناس تحت أسماء برّاقة من (المادية الجدلية) و (العلمانية) و (التقدم) و (التطور) ؛ بما يؤدي إليه ذلك من سيادة إرادة الشر على قلوب الناس وارتكاس فكرة (الضمير) عندهم ؛ لأن قيم الخير كلّها تنبع من عقيدة الإيمان بالله الخالق المهيمن الذي سيجزي خلقه على كل صغيرة وكبيرة مما فعلوه . وقد عبر عن ذلك الكاتب الروسي الكبير ديستيوفسكي في روايته (الإخوة كارامازوف) حين قال على لسان أحد أبطالها « إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء مبـــاح » لأن الإيمان بوجوده تعالى هو مصدر الضوابط والحواجز التي تعصم

الإنسان من التعدي والجوْر والظلم ، رغبةً ورهبةً ، ومن هنا كان الشيوعي الملحد دائماً أقسى البشر في سفك الدم البشري وانتهاك كافة القيم الخيّرة ، كما يشهد تاريخهم الطويل في كل مكان حلوا به حتى (عراق) عبد الكريم قاسم في وطننا الإسلامي .

ومما لا شك فيه أن الإحالة إلى المصادفات والمجاهيل على النحو السابق في النظرية المادية في نشأة الكون وأطوار الخلْق — إنما هو أمر يناسب طوْر الطفولة البشرية حين تتخلى عن مقولات (الوحي الديني) أو تجهلها . في غيبة وجود علم تجريبي متقدم يكشف عن الأسباب والعلل في الأشياء ، ولا يتكل على فكرة (المصادفات المتتالية) لتحل له غموض الأشياء ، وذلك أن البشرية قد أصبحت تملك من وسائل القياس الرياضي ما تستطيع به أن تقيس درجة الإمكان حتى في المصادفات والمجاهيل .

وهذا ما فعله العلم الرياضي بالفعل حين قاسى الإمكان في المصافادت السابقة في النظرية المادية ، فانتهى من ذلك إلى أنه لا توجد أدنى نسبة من الإمكان الرياضي لنشأة الكون والحياة على النحو الذي يذكره الماديون .

فلقد توصل الرياضيون إلى (قانون) يضبط نسبة الإمكان والاحتمال في كل قول بالمصادفة ؛ وهو يقوم على جمع إحصائي لكل ما يتضمنه القول ثم تطبيق قواعد رياضية

عليه ، ينتج عنها تحديد كامل لشروط الإمكان الصحيح في القول المفترض . وعلى سبيل المثال فإن العلماء الرياضيين قاسوا قدر الإمكان والاحتمال في القول المادي السابق بنشأة جرثومة الحياة الأولى بمحض تجمع عناصر معينة بطريق المصادفة البحتة — دون تدبير قاصد — فانتهوا من ذلك إلى استحالة أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، لأنهم جمعوا عناصر المادة ، وكميتها ، وتنوعها ، فوجدوا أن قدر المادة الموجودة في الكون لا يكفي رياضياً لنشأة جرثومة الحياة . ومن ثم توصلوا إلى أنه لابد من وجود إرادة قاصدة عالمة وراء بدء الخلق ونشأة الحياة فيه .

وهناك كتب علمية كثيرة فصلت القول في الاستحالة الرياضية الكامنة في فكرة (بدء الخلق بالمصادفة (١) ، ويمكن أن نضرب في ذلك مثالا مبسطاً على سبيل التنظير ،

---

(١) ومن أحسنها كتاب العالم الفرنسي الكونت دي نواى (قدر الإنسان) Human destiny ، وهناك كتب عربية كثيرة تناولت ذلك مثل كتاب (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) للشيخ نديم الجسر ، ومؤلفات الباحث الهندي المسلم وحيد الدين خان ، وهي كتب ممتازة محققة ترجع إلى أوثق المصادر الأصلية وقد أفاد هذا البحث منها

وانظر بحثاً للدكتور فرانك آلن عالم الطبيعة البيولوجية الأمريكي بعنوان (نشأة العالم ؛ هل هو مصادفة أم قصد) ص ٥ — ١٠ من المجموعة السابقة .

هو أننا لو أتينا بألف قطعة من الورق ، وكتبنا على كل منها رقماً مسلسلا ، بحيث أصبحت الأرقام المكتوبة عليها من واحد حتى ألف ، ثم بالغنا في خلطها بحيث تفقد كل معنى للترتيب فلا يكون رقم منها بجوار ما قبله أو ما بعده ، ثم وضعناها جميعاً في كيس ، ومد رجل يده فيه ليخرج — بطريق محض الصدفة العمياء — رقماً بعد رقم ، فإنه لكي يتخرج الورقة المكتوب عليها الرقم ١ ، ثم يخرج بعدها الورقة المكتوب عليها الرقم ٢ ، ثم الورقة المكتوب عليها الرقم ٣ — فإن هذا يحتاج — من حيث الإمكان الرياضي — إلى محاولات كثيرة جداً حتى يتحقق ذلك . أما أن يخرج عشرة أرقام متتالية بطريق الصدفة فذلك يحتاج إلى محاولات أكثر جداً تدخل في باب الملايين . أما أن يخرج بطريق محض الصدفة مائة رقم متتابعة فذلك يتطلب أكثر وأكثر من المحاولات ، أما أن يخرج الأرقام الألف متتابعة مرتبة بطريق محض الصدفة فذلك يتطلب رياضياً عدداً من المحاولات لا يستطيع العقل البشري أن يسميه أو يستوعبه . وقد أثبت العلماء الرياضيون في أقيستهم السابقة أن توفر ظروف لانبعاث الخلية الأولى بمحض مصادفة تجمع عناصر صالحة لها يتطلب من المكان والزمان والمادة ما يجعله في حكم المستحيل بالنسبة لما نعرفه عن أقصى تقدير في حجم الكون المادي وعمره .

ومع هذا كله ، فلو سلمنا جدلا بإمكان أن تنبعث جرثومة الحياة الأولى بطريق محض المصادفة — فإن في الكون

المادي بحالتيه الراهنة والسابقة ما لا يحصى من الشواهد القاطعة باستحالة أن تكون الحياة قد استمرت بعد انبعاثها الأول بطريق المصادفة المحضة ، وهذه الشواهد التي لاتحصى تجمعها فكرة (النظام المحكم) الذي يسود كل شيء في الكون بطريق مذهلة ، ولا يتطلب منا أمر مطالعة شيء من هذه الشواهد القاطعة أكثر من أن نأخذ أيّ شيء مخلوق ونتفحصه ، وحينئذ ستطالعنا فيه — في غاية من الوضوح — فكرة النظام المحكم الذي يتجلى فيه ، مما ينفي تماماً إمكان أي زعم للصدفة والعبث في أية جزئية فيه ، ويكشف عن الغاية والقصد والتدبير في خلقه وتكوينه . وذلك صادق على الجماد والنبات والحيوان والإنسان في كل جزئية منها ، وأيضاً هو صادق على ما هو موجود في الأرض وما هو من غيرها من الكواكب والنجوم والسيّارات .

ولا يجرؤ أعتى الملحدين على أن ينكر أن فكرة (النظام المحكم) تسري في الكون المادي وتتجلى في كل مظهر منه صغر أو كبر ، من أكبر مجموعات النجوم والكواكب إلى أصغر الذرات في أي شيء على الأرض ؛ بل إن العلم الحديث ليثبت نوعاً أكيداً من (وحدة الخلْق) في كل المخلوقات حيث تسودها قوانين كونية واحدة تقطع باتحاد المصدر فيها ، إلى حد أننا نجد أن (الذرّة) التي تناهت في صغرها تحتوي في داخلها على نفس النظام الفلكي الذي نجده في المجموعات النجمية الكبيرة ، مثل المجموعة الشمسية ؛

حيث يدور الإلكترون فيها حول البروتون حسب نظام الدوران الفلكي ، في صورة يستعصى على العقل العادي مجرد تصورها ، لولا أنها ثبتت عند العلماء التجربيين بشواهد كثيرة ، انبنت عليها آلاف المخترعات الحديثة .

ولا يحتاج أمر مطالعة (النظام المحكم القائم على غايات مقصودة) في الكون ، إلى فكرة الانتقاء والاختيار من بين عناصره ؛ فكل شيء فيه — دون استثناء — فيه الشواهد القاطعة على فكرة الغاية والقصد والحكمة ، هذا اللسان الذي يتكلم ، وهذه الأذن التي تسمع ، وهذا العقل الذي يلاحظ ويفكر ويختزن ويبتكر ويستنتج ، وهذه اليد التي تكتب ، وهذه العين التي تبصر . في كل منها — وفي غيرها — آلاف الشواهد القاطعة بأثر الإحكام والغاية والنظام من ورائها ، فلو اختل أيسر شيء في خلقها لما انتفع بها المخلوق ولتغير وجه التاريخ البشري كله . ربما يغفل الإنسان عن دواعي العجب في ذلك كله لدوام معايشته المستمرة له بحكم العادة والإلف(١) .

---

(١) ومن هنا كان التوجيه القرآني المتكرر للإنسان دائماً بالنظر . في مثل قوله تعالى (وفي الأرض آياتٌ للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) الذاريات ٢٠ — ٢٣ . لأن النظر المتكرر هو الذي ينتزع الإنسان من غفلة العادة والإلف ، فينبهه إلى مظاهر الإحكام العجيب المذهل في الآفاق والأنفس وكل شيء بإطلاق .

ولو اختل أيسر شيء في النظام الكوني على الأرض أو في السموات لما استمرت الحياة لحظة واحدة ، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن قوانين الضغط ، والجاذبية ، والتوازن ، والوراثة ، . . وألف ألف قانون يحدثنا عنها العلم الحديث الذي يكشف لنا عن ألوان من (التنظيم المحكم) في كل شيء مما في الكون ، بصورة تستوقف العقل في روْع أمام دقتها ولطف التدبير فيها . وأيضاً فإننا لا نريد أن نتقحم مجالات ومعارف قد لا نحسن القول أو الفهم فيها لإيغالها في باب التخصص التجريبي . ومن ثم سنكتفي بمثال واحد بسيط جداً نعايشه جميعاً ونغفل عنه بحكم العادة والإلف فلا يستوقفنا الأمر فيه إلا بأن نخرج أنفسنا شيئاً ما عن سلطان العادة . وهو أمر لا تحتاج ملاحظته إلى تخصص في أي فرع من فروع العلم ؛ لأنه يعايشنا ويتخلل حياتنا كلها ، ذلكم هو (نظام التناسب بين الذكور والإناث في كل مجتمع) ؛ ففي كل مجتمع يوجد العزّب من الرجال والعزبة من النساء ، كما يوجد المتزوجون الذين تختلف حالاتهم من حيث الإنجاب بين العقْم ، أو إنجاب الذكور وحدهم ، أو إنجاب الإناث وحدهن ، أو إنجاب الذكور مع الإناث . . فعندما إذن خمس حالات فردية في كل مجتمع صغير أو كبير ، لكن حصيلة الأمر دائماً في كل مجتمع هو التناسب بين مجموع عدد الذكور من كل الأعمار ومجموع عدد الإناث من كل الأعمار (٤٩ — ٥١ أو $\frac{1}{2}$ ٤٩ — $\frac{1}{2}$ ٥٠ أو $\frac{1}{2}$ ٥١ — $\frac{1}{2}$ ٤٨ أو ٥٢ — ٤٨) ولم

يختل هذا التناسب في أي مجتمع بشري اختلالا كبيراً إلا بسبب ظروف طارئة مثل الحروب الكبيرة التي تأكل الرجال فتزيد نسبة النساء ، أو هجرات الرجال الجماعية أو نحو ذلك .

ومع هذا فقد لوحظ — بمزيد من الدهشة — أن آثار هذه الظروف المؤقتة لا تستمر طويلا ؛ حيث لوحظ أنه في أعقاب الحروب الكبيرة تزيد نسبة المواليد من الذكور في المجتمع شيئاً ما حتى يرجع التناسب تدريجياً . ما الذي يدل عليه هذا التناسب العجيب الذي يسود الأجناس البشرية كلها في كل زمان ومكان ؟ إنه يقطع بأن هناك نظاماً كونياً يتمثل في سنن عامة قاصدة هيمنت على البشرية ، فهل يمكن أن يكون هذا النظام المحكم ذو الغايات المقصودة قد صدر عن محض الصدفة العمياء التي لا قصد فيها ولا إرادة ؟ أعتقد أن التفكير السليم يقضي باستحالة ذلك(١) .

(١) في بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاختلال العظيم في النسبة بين الجنسين من علامات الساعة ؛ حيث روى البخاري مرفوعاً أن من أشراط الساعة أن (تكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد) وذلك في سياق ما روى من قبض العلم ، وظهور الجهل والفتن ، وكثرة الزنا وظهوره ، وكثرة الهرج ، وهو القتل . راجع (كتاب العلم) في البخاري ، وانظر أيضاً (فتح الباري) في شرحها .

ومفهوم هذه الأحاديث أن هذا التناسب من السنن الكونية التي يكون اضطرابها منذراً بالساعة .

ومن أجل هذا نقول : إنه سنظل كلمة الأعرابي البسيط هى الصدق الواضح ، في مقابل الضلال والبهتان الذي يطالعنا في مئات الكتب في الفكر المادي القائل بإمكان أن ينشأ كل هذا النظام العظيم عن محض الصدفة بطريقة مجهولة ! أما الأعرابي الذي نعنيه فهو الذي قال : « « البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسماءٌ ذاتُ أبراج ، وأرضٌ ذاتُ فجاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج .. ألا يدل ذلك كلّه على اللطيف الخبير ؟ » .

وأما المنطق المادي المعكوس المتناقض حقاً مع قواعد العقل فهو ما نجده في مثل قول جوليان هكسلي J. Huxley :

« لو قعد ستة من القرودة أمام آلات كاتبة ، وظلوا يضربون على حروفها لملايين السنين ، فلا يستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ؛ فكذلك كان الكون الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين » .

ونحن نقول لمستر هكسلي : لكن من الذي خلق مادة الكون الخام أصلا بعد أن ثبت أنها غير أزلية ؟ ثم من الذي أثار فيها هذه العمليات « العمياء » أصلا ؟ ثم إذا سلمنا — فرضاً وجدلا — بنشأة أصل الحياة بمحض الصدفة العمياء — كما تقول — ألا يتطلب منا منطق الاحتمال العقلي والعلمي أن تكون الأمور في الكون بعد هذا مشتملة على نظام في بعض

الأمور وفوضى وانعدام نظام في بعضها الآخر ، على الأقل ، إن لم تسدها كلّها الفوضى وانعدام النظام كنتيجة طبيعية لنشأتها عن الصدفة العمياء ؟ وهل يمكن أن ينتج عن الصدفة العمياء نظام مطرد بالغ الإحكام في كل صغيرة وكبيرة ؟ وهل ترشدونا إلى شيء واحد فقط في الحياة كلها نشأ عن محض الصدفة فيه نظام مطرد الإحكام بصورة مستمرة ذات غايات مقصودة ؟

لو أننا وجدنا شيئاً واحداً في الكون المادي يسير على غير هدى أو نظام أو غاية ، لقلنا : هذا حقاً أثر الصدفة العمياء التي انبثق عنها الكون ، لكن العلم المادي نفسه هو الذي يلجئنا بقوانينه التي يكتشفها في كل شيء بإطلاق إلى التسليم بفكرة النظام المحكم المطرد في كل شيء ، والذي يستخدمه هو في مخترعاته التي لو لم تبْن على نظام محكم لانتهى كل مخترع منها بالبشرية إلى كارثة رهيبة ؛ حيث كان سينتج في بعض تطبيقاته العلمية نتيجة إيجابية نافعة ، وفي بعضها الآخر نتيجة سلبية ضارة ، لكن الذي يضمن اطراد المختّرع العلمي ودوام آثاره إنما هو اطراد النظام المحكم الذي انبنى هو عليه .

ولا أريد هنا أيضاً أن أطيل القول في أن المنطق الرياضي الحديث يستحيل معه أن ينشأ (النظام المحكم المطرد في كل شيء) عن محض الصدفة العمياء ؛ فذلك أمر بالغ الوضوح من حيث

نتيجة التجربة الفردية في كافة أمور الحياة ، ومن حيث مقولات العقل الأصلية أيضاً .

— ٦ —

... وهكذا رأينا أن التفسير المادي الملحد للكون يتضمن تناقضات أساسية مع مقررات في العلم التجريبي والنظر العقلي ، وكان الدافع وراء هذا التناقض هو (إنكار وجود الإله الخالق) ؛ فذلك الإنكار هو الذي ألجأهم إلى القول بالصدفة العمياء ، بما جرّه عليهم هذا القول المتهافت من من تفسيرات وأمثلة لا تستقيم أبداً في منطق العقل أو التجربة ، لأنها — كما وصفها بحق أحد العلماء التجريبيين (١) — تساوي القول بأن انفجاراً وقع في مطبعة بالصدفة فتسبب في طبع معجم ضخم ؛ حيث تجمعت الحروف في كلمات وسطور وجمل — بمحض الصدفة من أثر الانفجار — ثم طبعت على أوراق في مئات الصفحات مكونة معجماً ضخماً !

ومما لا شك فيه أن من حقنا أن نسألهم : وما الذي يلجئكم إلى هذا التكلف العجيب كله ، في مقابل الإقرار المنطقي الواضح بوجود الخالق ؟

وحينئذ نراهم يسارعون بالإجابة فيقولون : إن منهجنا ألا نسلم بوجود شيء لم يقم عليه دليل مادي واضح ؛

(١) هو الأستاذ إيدوين كونكلين .

لأننا لا نؤمن إلا بالمحسوس الصلب الذي لا شك فيه ؛ لأنه حقائق ثابتة يراها الإنسان ويحسّها ويلمسها بكل وسيلة ، وذلك لا يتحقق إلا في (المادة) ، ومن ثم نحن نحصر وجودنا وفكرنا في الطبيعة المادية ، ولا نؤمن بشيء يجاوزها مما يسمى (وراء الطبيعة) أو (الميتافيزيقيا) ؛ لأننا لم نر شيئاً من ذلك أو نحسه . ... تقولون (الله) فأين هو حتى نراه ونحسه ؟ وأين ما تطلقون عليه (الوحي(و (الملائكة) و (البعث) حتى نراها ونحس بها في مادة ؟

وهذا المنطق المادي قديم ، وُجد قبل الماركسية بآلاف السنين ، وليس لها فيه حتى الابتكار ، وهو الذي كان وراء المكذبين بالدين على مر العصور حتى جاء الفيلسوف الألماني كانت في القرن الثامن عشر الميلادي فأعطى في كتابه (نقد العقل الخالص(١) تشبيهاً ما يزال الماديون مولعين بترداده لا يسأمون ، وهو أن « كل كلمة لا رصيد لها إلا الحس المادي ؛ فهو الذي يبين صدقها أو زيفها » . وقد تبنى الماديون هذا التشبيه فقالوا : إن كل كلمة لا مقابل لها في لمادة المحسوسة فهي ــ عندهم -- « شيك بدون رصيد » ، ومن ثم نراهم يقولون : أنتم تحدثونا عن (الله) فأين هو في عالم المادة المحسوسة حتى نقرّ به ؟

---

(١) راجع عن كانت وفلسفته ، مثلا : قصة الفلسفة لول ديورانت ص ٤٥٠ ــ ٤٨٠ .

وقد قيل إن (كانت) في تشبيهه السابق لم يكن يقصد نفي الألوهية ، إنما كان يقصد عجز العقل عن الإحاطة بالله تعالى(١) . وسيأتي في هذا البحث قول آخر لكانت يلقي ضوءاً على عقيدته في ذلك .

على أننا نجد هذه الحجة المادية تستخدم في إنكار الدين في صور تعبيرية مختلفة ، عند الماديين الملحدين جميعهم من ماركسيين ووضعيين ووجوديين ملحدين ، من كارل ماركس وفريدريك إنجلز ، حتى هكسلي وبرتراند رسل وجان بول سارتر وغيرهم من ملاحدة العصر . كما نجد صداها الواضح عند أتباعهم وأشياعهم ممن يعيشون في بعض بلادنا الإسلامية عاملين جهدهم لنشر هذه المذاهب الإلحادية بكل طريق ، خاصة بين الشباب المسلم الذي لم يتمرس بالفكر والجدل ولم يتلق ثقافة إسلامية كافية .

فما الذي نراه في هذه الوجهة الإلحادية لرفض الإقرار بالله تعالى وما يتبعه من قيم دينية ؟

إننا نرى أن هذه الحجة نفسها هي التي تحتوي أعظم تناقض تقع فيه التيارات الإلحادية كلها ، بالنظر إلى مقررات العلم التجريبي الحديث الذي يؤمنون به ويدعون إليه ، ونرى

---

(١) أنظر مثلا : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ص ٣٠٤ .

أن هذا التناقض عظيم ؛ لأنه تناقض في المنهج ذاته . ونرى أن منهج العلم التجريبي المادي عندهم هو نفسه الذي يقتضي التسليم بوجود الله تعالى ، وإلا وقعوا في تناقض ذاتي لا مفر منه . وذلك على التفصيل التالي : تقول المذاهب المادية : إننا لا نؤمن بشيء ما إلا إذا كان حقيقة مادية لها وجود محسوس ثابت في عالم المادة . فهل ما يؤمنون به من علم تجريبي مادي ينطبق عليه تماماً هذا الحد الذي وضعوه؟

إذا راجعنا كل النظريات التي يضمها هذا العلم فسنجد أنها في مجموعها تنقسم إلى قسمين رئيسيين :

الأول : يتكون من قضايا ذات حقيقة مادية ولها في ذاتها وجود محسوس في عالم المادة ، مثل أن المغناطيس يجذب الحديد ، وأن الكائن الحي ينمو نمواً مطرداً منذ يوجد ، وأن الشمس مصدر عظيم للطاقة . . . وغير ذلك من المعارف التي عرفتها البشرية بطريق المشاهدة والتجربة الحسية في المادة .

وهذا القسم في مجموعة أقل بكثير من القسم الثاني الذي تتكون منه معظم المعارف التجريبية والذي يشمل نظريات وفروضاً تقوم عليها آلاف المخترعات التطبيقية ، مع أنه ليس لهذه الفروض والنظريات في ذاتها وجود ماديّ أو حقيقة مشاهدة ملموسة ؛ إنما توصل العلم التجريبي

إلى وجودها بطريق الاستدلال من ظواهر مادية معينة ، بحيث غلب على ظنه أن هذه الفروض لا بد أن تكون موجودة ، وإلا استعصت هذه الظواهر المادية على التفسير .

وأركان العلم المادي الأساسية تتكون من هذه الفروض والنظريات التي لم يرها إنسان مطلقاً في صورة (وجود مادي محسوس) بأية صورة ، وليس له أي دليل على أنها موجودة حقاً إلا غلبة الظن بذلك من مشاهدات مادية متعددة ، مثله في ذلك مثل إنسان يسير في طريق يمر بمنزل عال مغلق لا يعرف شيئاً عنه ، فمر يوماً بجواره فسقط ثوب لآدمي من أعلاه ، ثم سقط في اليوم التالي كتاب ، ثم سقط في مرة ثالثة قلم ، وفي مرة رابعة حذاء لرجل — وهو لا يسمع صوتاً أو يشاهد أحداً في ذلك كله — لكنه « يستدل » من مجموع الوقائع السابقة على أن رجلا مثقفاً يعيش في هذا المنزل ، وهو لم يره بذاته ، لكنه يرى أن الأمور لا تفهم في مجموعها إلا على هذا النحو . ثم إنه قد يكتشف بعد هذا أن الحذاء لرجل لكن الكتاب والقلم لابنه ؛ لأن الرجل غير مثقف ، ومن ثم تتعدل النظرية شيئاً ما . بل إنه قد يكتشف بعد ذلك أن البيت لا يقيم به آدميون أصلا ؛ لأن قرداً يعيش فيه بعد أن خلا من سكانه وهو يعبث ببعض مخلفاتهم فيقع بعضها في الطريق فيثير استنتاجات خاطئة . وهنا تتغير النظرية كلية .

وهذا تنظير مبسط لصلة رجل العلم المادي بكثير من جوانب الكون المادية . بل إننا لا نكون مبالغين حين نقول :

إن معظم جوانب الكون المادي أكثر خفاء وغموضاً بالنسبة للعلم البشري التجريبي ، من المنزل العالي المغلق بالنسبة للإنسان الذي يمرّ به .

ولهذا لم يكن من المصادفة أن يتحدث كثير من العلماء التجريبيين عن (الكون الغامض الخفي) وأن يجعلوا هذا الاسم عنواناً لكتبهم العلمية(١) بل إن الإنسان نفسه حين يتناوله العلم التجريبي يصبح مليئاً بالمجاهيل والغموض مثل الكون نفسه . ونحن نعلم جميعاً أن واحداً من أهم الكتب المعاصرة التي تناولت هذه القضية سُمى باسم (الإنسان ذلك المجهول) وهو الدراسة العميقة التي قدمها الدكتور ألكسيس(٢) كاريل عام ١٩٣٥ م .

ونجد أمثلة واضحة لهذه الفروض والنظريات التي لم يرها — في ذاتها — إنسان مطلقاً في صورة محسوسة أو في صورة وجود مادي ثابت ملموس — في نظريات كثيرة قام

---

(١) ومن هؤلاء السير جيمس جينز ، وهو واحد من أكبر علماء العصر التجريبيين .

(٢) وهو طبيب وعالم بيولوجي وجرّاح ومفكر فرنسي ، حصل على جائزة نوبل في العلوم عام ١٩١٢ م ، وولد عام ١٨٧٣ ومات عام ١٩٤٤م Alexis Carhel, Man The unknown,

وهناك طبعة عربية نشرتها مكتبة المعارف ببيروت من هذا الكتاب وهي ترجمة شفيق أسعد فريد .

عليها العلم التجريبي مثل (الجاذبية) و (الأثير) و (الإلكترون) و (أصل نشأة الكون) و (أصل المجموعة الشمسية) و (عمر الأرض) و (هل كانت جزءاً من الشمس حقاً) و (هل انفصل القمر عنها) . . ومئات النظريات والفروض التي يمتليء بها العلم التجريبي .

ولنأخذ الأمثلة الثلاثة الأولى ؛ لأنها تحظي من مجموع العلماء بالموافقة ، وتقوم على افتراضها مئات التطبيقات والمخترعات ذاتُ القيمة الفنية العالية جداً ، وأعني نظريات (الجاذبية الأرضية) و (الأثير) و (الإلكترون) . ولنسأل أولا : هل يعترف الفكر المادي بهذه الأمور ؟ والإجابة أنه يعترف بها ويتحدث عنها كيقين علمي لا سبيل إلى مخالفته .

وهذا يقودنا إلى سؤال هام : هل رأى أحد من الماديين أو رصد بأية وسيلة حسيّة مباشرة شيئاً مادياً يسمى (الجاذبية الأرضية) أو (الأثير) أو (الإلكترون) ؟ و الإجابة هي بالتأكيد النفي ؛ فإن واحداً من الناس على شيء من العلم لا يستطيع أن يدّعيَ أنه رأى شيئاً مادياً – يمكن رصده مباشرة بالحواس – ويسمى (جاذبية) أو (أثيراً) أو (الكترونا) .

فكيف إذن يسلّم العلم المادي بوجود شيء من ذلك ؟ إنه يقول في تفسير هذا التسليم : إنه شاهد ورصَد في الكون المادي علامات ووقائع مادية متعددة تسير على نحو لابد أن تكون وراءه أشياء تسمى (الجاذبية) و (الأثير) و (الإلكترون) ؛ وذلك على سبيل الاستدلال العقلي الضروري ؛ لأنه لو لم توجد هذه الأشياء المختفية وراء المادة المنظورة لما سارت المادة على هذا النحو ؛ فالعلم المادي مضطر إلى التسليم بوجود أشياء لم يرها أبداً في ذاتها في صورة مادة ، لكن مشاهداته وملاحظاته المادية قاطعة ضرورة بوجود هذه الأشياء ، وفي كلمة واحدة : فهي ليست في ذاتها مادة . لكن المادة تدل عليها ضرورة .

ولنضرب مثالا على ذلك بقانون (الجاذبية) الذي دخل في العلم المادي على يد إسحق نيوتن . فما الذي نعرفه عنها ؟

لندع واحداً من كبار العلماء التجريبيين يحدثنا عنها : إنه البروفيسور ا. ى. مانديز الذي يحدثنا أولا عن أن المعرفة العلمية لا تقتصر على (الحقائق المحسوسة في ذاتها) ، إنما تتعداها إلى (الحقائق المستنبطة) التي تنبني على المشاهدات حتى تنتهي بنظرية تقول : إن الشيء الفلاني يوجد مع أننا لم نشاهده في ذاته مطلقاً ، اكننا نتبع في الوصول إليه منهجا تعليلياً استنتاجياً يوصلنا إليه . . ثم يمثل لذلك بأننا نرى أن الطير حينما يموت وهو طائر يقع على الأرض ،

ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهداً . ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك ، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهراً ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هي (قانون الجاذبية) ، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها الأخرى ارتباطاً كاملا داخل نظام عام ، وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أي ترتيب ، فهي متفرقة وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق .

وهنا لا بد أن نقول مع الباحث المسلم المدقق وحيد الدين خان : « إن قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية ، وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها ـ منطقياً ـ أن يؤمنوا بوجود هذا القانون » . وها هو نيوتن نفسه الذي كشف هذا القانون يقول عن المادة التي تكمن فيها الجاذبية المستنتجة : إنه « لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس

وهي تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما »(١) .

والأمر لا يقل غموضاً عن ذلك حين نأتي إلى نظرية (الأثير) ، فليس هناك أحد من العلماء قد رأى شيئاً مادياً يسمى الأثير ، وليس هناك أحد من الناس يعرف بالضبط ما هو ، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام ظواهر مادية متعددة لا يمكن تعليلها إلا بناء على افتراض أن هناك شيئاً يسمى (الأثير) ، فافترضوه .

فقد وجد العلماء بتجارب متعددة في انتقال الضوء وغيره أن الهواء هو الوسيط (٢) الذي ينقله ، فافترضوا أن هناك وسطاً تنتقل فيه الأشعة التي تصل إلى الأرض من الشمس وغيرها ، في أمواج تختلف في طولها ، وأطلقوا على هذا الوسط اسم (الأثير) ، لكن ما هو هذا (الأثير) ؟ وما كنهه ؟ لا يدري أحد من البشر عن ذلك شيئاً . ثم إننا حين نقرأ كلام العلماء عن هذا الافتراض الذي يسمونه

---

(١) أنظر : الإسلام يتحدى ص ٤٨ ــ ٤٩ ، وأفكار مانديز عن كتابه (فكر أوضح) ، أما كلام نيوتن فهو في رسالة أرسلها إلى (بنتلي) « من مجموعة أعمال بنتلي الكاملة ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٢١ » .

(٢) راجع مثلا : التجربة المشهورة في وضع مصباح كهربي في داخل إناء مفرغ من الهواء ، ومع هذا ينتقل الضوء إليه .

(الأثير) لا بد أن نوافق المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد في قوله : « ما هو الأثير ؟ . . كل ما قيل عن الروح أيسر فهماً وأقرب إلى الإدراك من هذا الأثير . . شيء لا لون له ، ولا كثافة ، ولا حركة ، ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة في عالم العارفين بها والعاملين في ذراتها »(١) .

ألا يذكرنا هذا بكلام نيوتن السابق عن الجاذبية ؟ إن المرء ليحار حقاً : أيهما أكثر غموضاً من الآخر : الجاذبية أم الأثير ؟

أما (الإلكترون) فإنه يدخل هو الآخر في باب الغموض والمعميات ؛ لأن العلم المادي الحديث يقول لنا : إن المادة تتكون من الذرّات ، التي يتكون كل منها من الإلكترون الذي هو وحدة كهربية سالبة ، والبروتون الذي هو وحدة كهربية موجبة ، والنوترون الذي هو وحدة كهربية محايدة لا موجبة ولا سالبة .

والإلكترون السلبي يدور حول البروتون بسرعة لا يتصورها العقل ؛ لأنها تقدر ببلايين المرات في كل ثانية ، ومن هنا تبدو لنا المادة ثابتة لأن هذه الحركة المذهلة لا تلحظ بوسائل الرصد المادي الممكنة للبشر . وهذه الذرة التي

---

(١) راجع : الشيوعية والإنسانية ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، وانظر أيضاً كتاب (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) للشيخ نديم الجسر . وانظر كافة الكتب العلمية التي تتكلم عن هذا (الأثير) .

لايمكن مشاهدتها في ذاتها ، ولا مشاهدة الحركة المستمره فيها ، أكبر من الإلكترون الذي فيها بألف مليون مرة! هكذا يقول العلم المادي .

لكن ، كيف توصل إلى هذا مع أنه لم يشاهد شيئاً مادياً يسمّى (الإلكترون) ؟ إن العلم المادي يقول لنا : إن هناك آثاراً ومظاهر في المادة لا يمكن أن تفهم أو تجد تفسيرا معقولا إلا بفرض وجود ذلك الإلكترون . وقد بني العلماء على ذلك نظرياتهم في انشطار الذرّة وتحويلها إلى طاقة هائلة في التفجيرات النووية . بل إن التقسيم القديم الذي كان يقسم الوجود المادي إلى : مادة وطاقة — لم يعد تقسيماً دقيقاً ؛ حيث تبين أن المادة هي نفسها صورة توجد فيها الطاقة قابلة للانشطار .

بل إن الأعجب من هذا أن يحدثنا العلماء عن نوع سالب من البروتون ، لم يره أو يحسه أحد أيضاً ، إنما هو مطلق الفرض .

بل إن الأعجب من هذا كله أن يحدثنا بعض كبار العلماء التجريبيين عن (الوجود النقيض) الملازم لكل وجود مادي في صورة وجود مناقض له تماماً . وهذه واحدة من أحدث النظريات الفرْضية العجيبة التي لا يكاد العقل المعتاد أن يتصورها مجرد تصور . وقد ألّف فيها أحد العلماء المسلمين كتاباً جيداً باللغة العربية هو كتاب (هل لك في

الكون نقيض ؟) للدكتور عبد المحسن صالح أستاذ العلوم والهندسة بالجامعة المصرية .

— ٧ —

... ولسنا نريد أن نتقحم مجالات تفصيلية من العلم المادي لا نحسن الكلام في تفصيلاتها ، وأيضاً فإن هذه التفصيلات تجاوز ما نريد أن نستدل به على موضوع بحثنا . فكل الذي أردناه إنما هو أن نبين أن الزعم المادي الجريء القائل بأن التيارات المادية ترفض الإقرار بالقيم الدينية — وأولها (الإقرار بالله تعالى) — لأنهم لا يؤمنون بشيء إلا إذا كان حقيقة مادية لها وجود محسوس ثبت قابل لإمكان التجربة عليه في ذاته — إنما هو زعم باطل تماماً ، يقوم على أرجل من الخداع والتجهيل بحقائق العلم المادي ؛ لأن هذا العلم يقوم في الحقيقة — كما بينا — على مجموعة من الفروض النظرية التي ليس لشيء منها (في ذاتها) وجود مادي يجعله حقيقة محسوسة ثابتة كما يزعمون ، وكما قال البروفيسور ماندير فيما سبق فإن المعرفة العلمية الحديثة تقوم على (الفروض المستنبطة) من ظواهر ووقائع مادية ، إلى جانب ما تقوم عليه من (حقائق محسوسة في ذاتها) .

وحيث ثبت ذلك ، فإننا نقول للماديين والعلمانيين : حسناً أيها الناس ، ها أنتم تؤمنون بأشياء ليست مادة ، ولم

تروها مطلقاً ، ولم نتمثل في أية صورة حسية في الطبيعة بحال . وإنما إيمانكم بها مبني على مجرد الاستنتاج المنطقي بملاحظة ظواهر متعددة لا يربط بينها في ذاتها رابط حسي لكن الأمور لا تستقيم منطقياً عندكم إلا بوجود هذه الأمور العقلية التي تؤمنون بوجودها .

أليس هذا الذي تفعلونه هو نفس ما يفعله المؤمنون بالله تعالى حين يلاحظون النظام المحكم الساري في الكون المادي كله فيقولون — بطريق الاستنتاج العقلي أيضاً — إنه لا يستقيم أبداً وجود هذا النظام في هذه المواد المتفرقة إلا إذا سلمنا بأن هناك فاطراً قد خلقها ونظمها على هذا تبعاً لعلم وقدرة وإرادة مطلقة لا يحدها شيء ؟ .

تقولون للمؤمن بالله تعالى : أرنا الله في صورة مادة خاضعة للتجربة والمعاينة . فهل رأيتم أنتم أو غيركم من البشر (الجاذبية الأرضية) أو (الأثير) أو (الإلكترون) أو (كيفية نشأة الكون) .. أو ألف ألف نظرية تؤمنون بها — في صورة مادة خاضعة للتجربة في ذاتها ؟ .

أنتم تعتمدون على الاستنتاج العقلي وتقبلون ذلك فيما تؤمنون به ، مع أن ما تؤمنون به في ذاته لا يزيد عن أن يكون غيباً من الغيوب لم يشهده أحد ، إنما عُرف بآثاره — كما تقولون — وتسمون هذا النوع من المعرفة (علمانية) ، والنظريات تترى كل يوم بتغيير بعض ما تؤمنون به في ذلك

وتعديله والإضافة إليه ، فإذا جاء المؤمن بالله تعالى وسلك نفس منهجكم في الاستنتاج من الآثار والاستدلال بها على المؤثر ، فاستدل بمحض النظر على أن الله حق ، والحساب والثواب والعقاب حق ، والبعث حق ، والنبوات حق — فكيف يصح لكم عندئذ أن تسموا تفكيره بأنه خرافي غيبي أسطوري ؟ ! .

أليست هذه منكم قسمة ضيزى ؟ أين النظرة السواء إلى منهج الاستدلال ؟ أليس هذا أكبر دليل على اعوجاج الفطرة عندكم ؟ .

وإنه لدليل قاطع على قصور النظر ؛ لأنكم قبلتم الإحالة على المجاهيل والغيبيات التي تؤمنون بها في علمكم ، ولم يرها أحد منكم ، لكنها تفسر ظواهر جزئية في المادة ، ثم وقفتم بمنهجكم هذا عند حدود هذه الظواهر الجزئية ، ولم تنفذوا منها إلى موجد هذه الظواهر كلها ومبدعها على هذا النحو الباهر المعجز ، أليس هذا هو الوقوف بمنتهى علمكم عند بعض ظواهر الحياة الدنيا ، كما وصفكم الله تعالى في قوله (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) الروم ٧ ؟ لقد وقفتم بعلمكم عند بعض الظاهر ، وغفلتم — أو تغافلتم — عن الباطن وراء كل هذه الظواهر ، الظاهر في كل شيء منها ، الله تعالى الذي وصف ذاته بأنه (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الحديد ٣ .

ومما يبعث على أشد العجب أنكم تسمون اتجاهكم هذا (العلمانية) ، وأنتم ترفضون تطبيق منهجكم في الإجابة عمن : خلق هذه الظواهر كلها ، بحجة أن هذا بحث في الغيب لا في العلم ، فكيف يصح أن يوصف بالعلم من وقف بمعرفته عند بعض ظواهر الحدث جاهلا كيف وقع الحدث نفسه ومن قام به ؟ .

أعني : كيف يصح أن يوصف بالعلم من وقفت معرفته عن أن تدرك أولَ حق يجب أن يعرفه المخلوق الواعي ، وهو : من الذي خلق هذه الظواهر المادية كلها ؟

أيها العلمانيون أنتم تحذفون من دائرة علمكم العلمَ بخالقكم وخالق ظواهركم التي تبحثون فيها كلها ، فأنتم تشبهون من وجد كتاباً فأخذ يتعرف على بعض أشكال حروفه وبعضِ ألوان طباعته ، واستدل منها على أن هناك مطبعة أخرجته ، لكنه تغافل عن مؤلفه وصانعه ومبدعه أصلا من العدم ، ورمى كل من يحدثه عن ذلك — حين لقي رسوله فصدّقه وقامت آلاف الأدلة من الكتاب على صدقه — رماه بالخرافة والأسطورة والبعد عن العلم ومنهجه ... وما الوجود المادي كله إلا كتاب يكشف كل ما فيه عن خالقه . فالعلمانية إذن في حقيقتها من النسبة إلى ضد المفهوم ؛ لأنها جديرة حقاً بأن تكون (الجهلانية) حفيدة الجاهلية القديمة بعد ما أضيف إليها ما أضيف من مفاهيم التطور ! .

وإننا لنتحدى كل (العلمانيين) أن يبينوا لنا – في كلام مستقيم مقنع – لماذا يقبلون الاستدلال على غيبياتهم العلمية في المادة ، ويرفضونه في قضايا الدين خاصة ، وهو هو نفس المنهج الاستدلالي .

... فالحاصل من ذلك كله أن أعظم تناقض تقع فيه التيارات المادية الملحدة إنما هو في قضية الألوهية ؛ أعني قضية إنكارهم الاستدلال على وجود الخالق بآثار النظام المحكم المبثوثة في الكون ، بحجة أنهم يحذفون (الغيبيات) من دائرة علمهم ، لأنه ليس لها في ذاتها وجود مادي ، مع أن علمهم التجريبي نفسه يقوم على منهج افتراض النظريات الغيبية المليئة بالمجاهيل والفروض ، بطريق الاستدلال عليها من مجموع آثارها المادية ، فعلمهم يقوم على نفس منهج الاستدلال الذي يحرمونه بالنسبة للمؤمن بالله تعالى . . وهم يحلونه لأنفسهم في فروضهم ومجاهيلهم وغيبياتهم من أثير وإلكترون وجاذبية وغيرها .

والحقيقة الواضحة في ذلك هي ببساطة : أن منهج الاستدلال من الظواهر المادية على حقائق غيبية ، منهج مشترك بين العالِم المادي وبين المؤمن بالله تعالى ، مع اختلاف بينهما في مدى استخدام هذا المنهج ؛ أما الأول فقد وقف به عند حد الحقائق المادية القريبة التي تتجلى آثارها له بصورة مباشرة في الظواهر المادية المتعددة ، ولو لم يكن

هذه الحقائق في ذاتها وجود مادي محسوس . وأما الثاني فإنه لا يقف عند هذا الحد بمنهجه الاستدلالي ، بل يتجاوز به نطاق هذه الأمور المادية القريبة المستنبطة ، ليصل به إلى مرحلة استدلالية عالية تنتظم أمامه فيها كل هذه الحقائق المادية في صورة نظام محكم ذي غايات وأهداف مقصودة تتجلى فيها بوضوح ضرورة التسليم بالله الخالق العظيم العليم الذي أبدع كل هذا النظام وصوّره وأودع في كل شيء منه بإطلاق أقوى الأدلة على أنه هو الحق الفاطر المستحق وحده للعبادة والتعظيم .

ومن هنا لا نكون مبالغين حين نصف العلم المادي الملحد ــ مهما يصل إليه من مكتشفات ومخترعات تطبيقية ــ بالقصور وتوقف النموّ عند حد المراهقة الفكرية الذي لا يصل بصاحبه إلى حد الاكتمال والرجولة الحقيقية التي تنكشف معها أصول الأشياء .

ثم إننا نتوقف قليلا في هذا عند كلمة قالها الفيلسوف والرياضي والمفكر البريطاني الشهير برتراند رسل(١)

---

(١) راجع عن برتراند رسل وفلسفته المادية ، مثلا :

قصة الفلسفة لول ديورانت ص ٨١٧ ــ ٨٣٣ ومبحث (المادية وحدها لا تكفي) للدكتور إيرفنج وليام نوبلوتشي من كتاب (الله يتجلى) ص ٥١ ــ ٥٤ . وراجع في نفس هذه المجموعة فكرة (النظام في الكون) في بحوث متعددة منها .

(١٨٧٢ – ١٩٧٠م) الذي عمَّر قرابة قرن من الزمان ، وكان حاملا للواء الإلحاد في هذا العصر في كتاباته عن (المنطقية الوضعية) وعن (الفكر الرياضي) وغيرهما . فقد أخرج في أواخر حياته كتاباً سماه (لماذا لستُ مسيحياً ؟) W hy Iám not a Christian ؟ أقرَّ فيه بأن الاستدلال بنظام الكون على وجود خالقه استدلال منطقي ، لكنه عقّب على هذا بقوله : « على أن داروين قد أبطل هذا الاستدلال » يعني أن نظرية العالِم البريطاني تشارلس داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢ م) في النشوء والارتقاء وأصل الأنواع قد أبطلت الاستدلال على وجود الخالق بما في الكون من نظام .

هذا ما زَعَمه ، ولا يتسع المجال هنا لبسط القول في نظرية داروين الشهيرة وصلتها بوجود الخالق ، لكننا نقدم فيها فحسب هذه الملاحظات ليتبين ما في كلام برتراند رسل من بهتان وزيف كبيرين :

أولا : لم تزد نظرية داروين في أي وقت عن أن تكون مجرد فرض لم يقم عليه أبداً دليل قاطع أو قريب من القطع واليقين . ومنذ أعلنها داروين وُجد لها معارضون من رجال العلم التجريبي ؛ لأنه لم يقم أبداً دليل مادي محسوس على صحتها (بل قام الدليل على بطلانها – كما سيأتي) .

ثانياً : ومهما يكن من أمر ، فإن هذه النظرية لاتنقض على أي نحو دليلَ الاستدلال على الخالق بما بثه في الكون

من نظام – كما زعم رسل – وننبه النظر في هذا المقام إلى أن بعض علماء المسلمين رأوا أن هذه النظرية لو ثبتت فإنها لا تتعارض مع آيات القرآن الكريم في خلق الإنسان، وذلك على نحو من التأويل ، ومن هؤلاء العالم الشامي الشيخ حسين الجسر صاحب (الرسالة الحميدية) ، ويبدو أن هذا أيضاً رأي الشيخ نديم الجسر صاحب كتاب (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) ، وأيضاً يبدو أنه رأي الباحث الهندي المسلم وحيد الدين خان في كتابه (الدين في مواجهة العلم) ، ويبدو أيضاً أنه كان رأي عدد آخر من الباحثين المسلمين (١) .

ونحن نرفض وجهة نظر هؤلاء جميعاً – ومن يتفق معهم في ذلك – لأننا نرفض التأويل في النصوص الذي يبنون عليه قولهم هذا ، وأيضاً فإننا نعتقد أن آيات القرآن الكريم أجلّ وأعظم من أن نعرضها للمقارنة والتفسير بفروض علمية تتغير وتتبدل(٢) ، وأيضاً فقد ثبت بطلان هذه النظرية كما سيأتي ، فلا مجال لفرض صحتها إطلاقاً من

---

(١) راجع مثلا : دائرة معارف محمد وجدي ، و (الفلسفة القرآنية) للعقاد ، وانظر : الإسلام ونظرية داروين للأستاذ محمد أحمد باشميل .

(٢) راجع تفصيلا لوجهة نظرنا في رفض مثل ذلك في كتابنا (بحوث إسلامية) ص ١٥ – ٢١ .

أي وجه ، كما أنه لا مجال عندنا للقول بالتأويل الباطل في نصوص القرآن الكريم .

ويذكر بعض العلماء أن صاحب النظرية نفسه تشارلس داروين لم يكن ــ بعد أن قال بها ــ جاحداً لوجود الخالق ، إنما كان ــ كما صرح ــ متوقفاً ، يميل في معظم وقته إلى الإيمان بوجود الخالق ، وإن كانت تعتريه أحياناً نوبات من الشك تدعوه إلى التوقف في الأمر . وقد كتب في سنة ١٨٧٣م إلى طالب هولندي سأله عن عقيدته الدينية يقول : « إن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب ــ وفيه نفوسنا الشاعرة ــ قائماً على مجرد المصادفة ، هي في نظري أقوى البراهين على وجود الله » ، كما كتب يقول : « إن مذهب التطور والإيمان بوجود الله يتفقان » ، وأيضاً كتب : « إن الكون لم ينشأ عن مصادفة »(١) . فإذا كان صاحب النظرية نفسه ــ وهو أعلم بها ــ لا يرى أن القول بها يتعارض مع الإيمان بوجود الخالق العظيم ــ فكيف يصح لبرتراند رسل أو لغيره من الملاحدة الصغار أو الكبار القول بأنها نقضت الاستدلال على وجود الله بما بثه من نظام ؟ .

ثالثاً : وهذه في الحقيقة أهم ملاحظة ــ أن أحدث مكتشفات العلم التجريبي قد نقضت نظرية داروين من أساسها ، فقد طالعتنا وكالات الأنباء في شوال ١٣٩٤هـ

---

(١) راجع مثلا : عقائد المفكرين للعقاد ص ٦٦ ــ ٦٩ .

(أكتوبر ١٩٧٤م) أن أعضاء بعثة الآثار الفرنسية البريطانية التي تقوم بسلسلة من الحفائر في إثيوبيا قد اكتشفوا بقايا هيكل عظمي لإنسان يرجع تاريخها إلى حوالي أربعة ملايين سنة . وقال أعضاء البعثة إن هذا الكشف سيغير تماماً النظريات السابقة المعروفة عن أصل الإنسان(٢) .

ولاشك في أن نظرية داروين عن أصل الإنسان هي أول ما يتغير بناء على هذا الكشف الجديد الذي ينقض مزاعم التطور والارتقاء في أصل الأنواع ويبطل ما قاله داروين .

بهذا يتبين في وضوح أن برتراند رسل وأمثاله – حين اعتمدوا على هذه النظرية في إلحادهم – قد بنوه على وهم باطل ، صورت لهم أوهامهم وأهواؤهم أنه يكفي لإبطال الاستدلال الصحيح القوي بنظام الكون على خالقه تعالى . وصدق الله العظيم : (مثلُ الذين اتخذوا من دونِ الله أولياء كمثلِ العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهَن البيوتِ لَبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون) العنكبوت ٤١ ، وهكذا كل بيوت الكفر والإلحاد التي اتخذها الضلال المادي واستند عليها .

---

(٢) جريدة الأخبار القاهرية ٧٤/١٠/٢٨ ص ١ .

ونخلص من هذا كله إلى أن التبعيين لمذاهب الإلحاد المادية ، الذين يحاولون نشرها في بعض بلادنا الإسلامية — إنما يتبعون فكرا يتناقض مع مقررات العلم الحديث ؛ لأن هذه المذاهب الإلحادية التي يتبعونها — بخاصة الماركسية — تعتبر وليدة المفاهيم التجريبية لملاحدة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، وقد أثبت التقدم العلمي المعاصر خطأ هذه المفاهيم التي قام عليها الإلحاد المادي ، ومع هذا تصل الوقاحة بهؤلاء التبعيين إلى حد الادعاء بأن العلم التجريبي الحديث هو الذي يقود ضرورة إلى الإلحاد .

وأيضاً فإن هذه المذاهب التي يعيش على فتاتها التبعيون الماديون إنما نشأت في الأصل كرد فعل لبعض المعتقدات التي قررتها الكنائس النصرانية في القرون الوسطى في أوربا كعقائد دينية موحي بها . ثم بيّن العلم التجريبي خطأها بصورة قطعية ، بعد أن مارست الكنيسة إرهابها المعروف باسم (محاكم التفتيش) . وكل هذا لا ينطبق على الإسلام في حاضره أو ماضيه في شيء .

وتفصيل القول في ذلك أن الكنائس النصرانية في أوربا رغبة منها في السيطرة بالباطل على رقاب أتباعها قررت منذ القديم أن (البابا) ورؤساء الكنيسة ورثوا عن المسيح عليه السلام تلقي الوحي والقدرة على الإتيان بالمعجزات .

ويمثل هذه العقيدة الباطلة لقس بو قول السّ إلياس في كتابه (يسوع المسيح) عن عيسى عليه السلام : « ومن مزيته التي لا يفاضله فيها نبي ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إتيان المعجزات إلى تلاميذه ، ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده إلى السماء ، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضاً » . وبداهة هذا قول واضح البطلان ، فلم يحدث أبداً أن قام أحد رجال الدين النصاري -- من البابا إلى سائر قساوسته -- بالمعجزات التي كان المسيح عليه السلام يقوم بها بإذن الله(١) ، لكنهم اعتمدوا في ذلك على نص يقدسونه فيما يسمونه (إنجيل متى) الأصحاح ١٦ ، الآية ١٩ ، وهو : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات » .

ومن ثم قررت الكنيسة في القرون الوسطى أن (البابا) هو ظل الله على الأرض -- تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -- وأن كلمته هي كلمة الوحي ، ومن ثم فكل ما تقره الكنيسة فإنه هو صوت الوحي الإلهي . ولما كان البابا ورجاله -- من ناحية الحقيقة الخالصة -- لا صلة لهم بالوحي فإنهم -- بحسب علمهم البشري القاصر -- قد أقروا نظريات في الطبيعة وفي الفلك وفي غيرهما أخذوها عن أرسطو

---

(١) راجع : المسيحية للدكتور أحمد شلبي .

وبطليموس وغيرهما . وقد أصدر المجمع الثاني عشر للكنائس المسمى (المجمع اللاتيراني الرابع) الذي انعقد عام ١٢١٥م قراراً باستئصال كل من يرى رأياً يخالف ما أقرته الكنيسة في مسائل الطبيعة المادية وغيرها ، وسمت هذه المخالفة (هرطقة) ، ومن ثم فقد شكلت (محاكم التفتيش) الرهيبة التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلا في وحشيتها وأخذها الناس بمجرد الظن والشبهة حتى احصى أن هذه المحاكم أحرقت في ثمانية عشر عاماً فقط عشرة آلاف ومائتين وعشرين من البشر وهم أحياء ، وشنقت أكثر من ستة آلاف ، وأعدمت ما يقرب من مائة ألف . وروي أيضاً أنه ما بين عامي ١٤٨١ — ١٨٠٨م أحرقت بالنار وعذبت ثلاثمائة وأربعين ألف إنسان ، حتى انتشر بين الناس في أوربا مثل يقول : يقرب من المستحيل أن يكون الإنسان نصرانياً ثم يموت على فراشه ! وممن احرق (يوحنا هوس) و (جيروم) و (دي رومنيس) الذي قال إن قوس قزح ليست قوساً بيد الله يحارب بها أعداءه — كما كانت تقول الكنيسة — بل هي من انعكاس ضوء الشمس على قطرات من الماء ، فأحضر إلى روما وحبس معذباً حتى مات ، ثم حوكمت جثته وكتبه وأحرقت !

كما عذب الفلكي الإيطالي(١) جاليليو لمخالفته مقررات الكنيسة فيما يتصل بالأرض .

وإنا لنحيل في هذا إلى كتاب (تاريخ إعلان حقوق الإنسان) للأستاذ ألبير باييه (أستاذ علم الاجتماع بالجامعات الفرنسية) ؛ حيث يتكلم عن محاكم التفتيش ، فينقل عن الأب فاكندار في (قاموس اللاهوت الكاثوليكي) من أنواع التعذيب التي كانت تمارسها هذه المحاكم الكنسية مثل : الخاروق ، والعجلة ، والنار التي يصفها على النحو التالي : « كانوا يوقدون ناراً حامية ، ثم يمددون المتهم ورجلاه متجهتان إلى النار وقد قيدت بالأصفاد ، ثم يدهنونها بالدهن ، وهكذا يحرقونه على نحو بشع »(٢) دفاعاً عما زعموه ــ وهم كاذبون ــ دين المسيح عليه السلام .

فلما تقدمت العلوم التجريبية وتخلصت أوربا من سطوة رجال الكنيسة ، تبين بصورة قاطعة أن معتقدات الكنيسة التي زعمتها ديناً كانت باطلة تماماً ، فأدى ذلك إلى رد فعل

---

(١) راجع مثلاً : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ، وقصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، وقصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل . وكافة كتب التاريخ الأوربي في هذه الفترة .

(٢) ص ٥٢ ــ ٥٣ (حاشية) .

الحادي كبير نفّس به العلماء الماديون ــ ومن تابعهم ــ عن القهر الطويل الذي فرضته عليهم الكنيسة بغير حق قروناً متتالية ، فظهر الإلحاد في أوربا وانتشر وتفاخر به بعض قادة الفكر عندهم وسموه (حرية رأي) ، ووسموا كل ما يتصل بالدين بالخطأ والتخلف واستعباد الناس بالباطل ، وفي ذهنهم كل ما صنعته الكنيسة بهم مئات السنين .

وفي هذا الجو ركبت نشوة الغرور بعضَ العلماء التجريبيين وبعضَ الفلاسفة الذين تابعوهم ، فظنوا أن ما وصلوا إليه من مكتشفات تجريبية هو بديل الدين في المجتمع ، بخاصة حينما توصلوا إلى علل مادية لبعض الظواهر ، فظنوا أن المادة يفسر بعضها بعضا في صورة قوانين متتالية السببية ، وتوهموا في نشوة الانطلاق من أسر الكنيسة أنهم توصلوا إلى أسرار الوجود المادية ، حتى قال العالم الطبيعي الألماني أرنست هيكل (١٨٣٤ــ١٩١٩م) Haeckel : « إني أستطيع خلق الإنسان لو توفر لي الماء والمواد الكيميائية والوقت الكافي » ، وقال الفيلسوف الألماني عمانويل كانت : « إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف خلق الكون منها » ، أما الفيلسوف الألماني نيتشه صاحب (إرادة القوة) فكان يصرخ في نوبات جنونه التي سببها أحد الأمراض الخبيثة السرية ، بعبارة سخيفة الكلمات كاذبة المعنى ، ينسب فيها الموت ــ والعياذ بالله ــ إلى الله

تعالى ؛ وهو يعني أن البشرية لم تعد بحاجة إلى الاعتقاد بوجوده ؛ لأن (العلم المادي) قد حل كل شيء في الكون ، وأصبح هو معبود البشرية . وهو نفس المعنى الذي سيردده بعد عشرات السنين الكاتب القصصي المشهور صاحب رواية (أولاد حارتنا) التي سبقت الإشارة إليها في أوائل هذا البحث ، وذلك على لسان (عرفة) الذي رمز إلى العلم به . ونعوذ بالله تعالى من الضلال القديم المتجدد على ألسنة التبعيين المبشرين بالإلحاد عن جهل كبير .

وفي هذا الاتجاه أيضاً ما ذكر من أن نابليون بونابرت وجه سؤالا إلى العالم الفلكي الشهير (لابلاس) عن القدرة الإلهية في تنظيم الفلك ، فأجاب ـ كأنه قد ملك زمام العلم بكافة أمور الفلك : « إني لم أجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله » . كأن العلم البشري حينئذ كان يفسر كل شيء(1) .

... كان هذا ـ على نحو عام ـ هو حال الفكر في أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله بقليل ، وفي ظل هذه الأفكار ظهرت (الماركسية) الملحدة التي يدين بها ويعمل على نشرها بعض من ضلت بهم السبل من أبناء بعض المسلمين في بعض البلدان الإسلامية .

---

(1) راجع : عقائد المفكرين ص ٣٠ وما بعدها .

لكن العلم المادي المعاصر في القرن العشرين قد أثبت أن هذه الأقوال كانت أمعن في باب البطلان من أضاليل القدماء وأساطيرهم ؛ فلما زالت نشوة العلم السطحي الناقص تقدم العلم بالمادة خطوات فإذا بالعلماء يكتشفون أن العلل السطحية التي ظهرت لأسلافهم في القرنين السابقين إنما تخفي وراءها أسرار أعمق وعللا أبعد ، وكلها تكشف عن نظام محكم ينم عن خالقه في كل صغيرة وكبيرة منه — على النحو الذي سبق القول فيه — ليس هذا فحسب ، بل إنهم توصلوا إلى أن العلم البشري محدود جداً وقليل في جانب عظمة الكون وعمق أسراره وخفائها ، وأن الإنسانية محكوم عليها إلى الأبد — مهما تقدمت بها العلوم التجريبية — بأن تظل معرفتها في نطاق ضيق من بعض ظواهر الكون المادي ، أما كنه الأشياء وحقيقتها في ذاتها فليس للبشرية إلى معرفته سبيل .

وفي هذا يقول الأستاذ ف. ه. مترام V H Mottram أستاذ البيولوجيا في كتابه (الأساس الجثماني للشخصية) : « إن العلم كله قائم على نتائج ملاحظة الحواس الخمس أو الست ، مع ذلك فإن هذا النسيج العجيب الذي لحمته وسداه العلم أعطانا — حين استخدم في مجالات التطبيق العملي — العقاقير القاضية على الأمراض ، والمفرقعات شديدة الانفجار ، والطيران في أجواز الفضاء ، وعبور

البحار في عباب الأعماق ، والتخاطب بين المشرق والمغرب عبر المحيطات ، ثم ترابط البشر وأوجه نشاطهم في الكوكب الأرضي من أقصاه إلى أقصاه . كل هذه الإشياء العجيبة ما قامت إلا على تلك الدعامة الواهية من صنع الحواس الإنسانية ، فهي لم تعدْ أنها وصف مرتب للنتائج الثابتة المستمرة من سبْر الإنسان لأعماق المادة العلمية التي وفرتها لنا تلك الحواس .

مع أنه لم يقم لدينا الدليل المنطقي لاعتقادنا بأن تلك المادة العلمية ترقي كثيرا عن مجرد مسوخ مشوهة من الحقيقة الكاملة . ففي الحقيقة والواقع أننا إذا افترضنا مؤقتاً — ومن بعض الوجوه — أننا نعتقد في وجود أشياء خارج ذواتنا لاستطعنا أن نجزم كل الجزم بأن ما نشاهده لا يقابل الحقيقة في شيء . فمثلا (اللون الأخضر) يقابل ما يصفه علماء الفيزياء بأنه هو الذبذبات المتكررة عددا معيناً من المرات في الثانية الواحدة في وسط افتراض محض . ومع ذلك فليس ثمة وجه شبه بين اللون الأخضر وملايين الذبذبات (١)

ويقول الأستاذ جون استيوارت كوليس في كتابه (Time and Tide) : « مهمــة رجال العلم هي أنهم يبينون لنا كيف تحدث الأشياء ، لذلك نجدهم يصفون ولا يعللون أبداً ، وهم بعيدون كل البعد عن التأويل لأن

---

(١) ص ١٨١ من الترجمة العربية للدكتور عبد الحافظ حلمي محمد

أي شخص كائناً من كان ليست لديه أدنى فكرة عن (ماهية) أي شيء أو عن علة وجوده ، وإن كنا نعلم الكثير عن كيفية بقائه . وإذا كان رجال العلم عجزين عن الوصول إلى العلل والأسباب فغيرهم أعجز منهم »(١) .

وكمثال على ذلك فإن الملاحظة البشرية تعرف أن (المغناطيس يجذب الحديد) ، لكن لماذا يفعل ذلك ؟ وما الذي فيه يعطيه هذه القدرة ؟ هذا ما لا يعلمه أحد من الناس لأن أكبر عالم فيهم لا يدري شيئاً عن كنه أي شيء في ذاته .

وبعد أن كان العلم التجريبي في القرن التاسع عشر يحدثك في ثقة عن أصل الأشياء المادية وعللها : كأنها حقائق ثابتة يدركها هو في وضوح ، إذا بالنظام المادي يقلب معرفته السطحية رأساً على عقب ويعطيها وزنها الحقيقي . وكما يقول المرحوم الأستاذ محمود عباس العقاد بحق : « أفلت من المادة كل شيء ثابت ، أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت والحقيقة . فاللون من الشعاع ، والشعاع هزات في الأثير ، والوزن جاذبية ، والجاذبية فرض من الفروض . والجِرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعة الجسم في الحركة ونصيبه من الحرارة ، والحرارة

(١) ص ١٨٥ من المرجع السابق .

ما هي ؟ حركة . والحركة في أي شيء ؟ في الأثير . والأثير ما هو ؟ فضاء أو كالفضاء »(١) .

وهذا العجز القاطع عن إدراك ماهيات الوجود المادي هو الذي دفع جوليان هكسلى إلى أن يقول : « يجب أن نستعد لمواجهة الحقيقة ، وهي أن جهلنا بالحقائق النهائية سوف يستمر إلى الأبد بسبب فطرتنا المحدودة »(٢) .

ألا يذكرنا هذا كله بقوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الإسراء ٨٥ ، وقوله (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) الروم ٧ ؟

... وإذن فقد أبطل العلم الحديث كل ضلالات الغرور الكاذب التي صورها العلم السطحي لبعض العلماء والفلاسفة الذين عرضنا لأقوالهم مثل هيكل ولا بلاس وغيرهما .

ونضيف إلى ذلك أن أقوالهم الإلحادية السابقة ذاتها حين نحللها في دقة فإنها هى أيضاً تتضمن – رغم إلحادها الظاهر – الإقرار الضمني بالإله الخالق ؛ لأن هيكل حين يقوم : لو توفر لي الماء والمواد الكيميكئية والوقت الكافي فإني أسطيع خلق الإنسان ، وكانت حين يقول : إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف خلق الكون منها – فإنما

---

(١) راجع : عقائد المفكرين ص ٥٧ .

(٢) راجع مثلا : الفكر الأسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٣٠١ – ٣٠٢

يعترفان ضمناً بضرورة الحاجة إلى الإقرار بالإله الخالق ؛ لأن أحداً لم يقل (سوف أخلق المادة من العدم) ، إنما قال : إيتوني بها أولا أعلمكم كيف تتخلق منها الأشياء ، فهما قد أقرا ضمناً بالحاجة إلى الموجد الأول ضرورة ؛ لأنه هو الذي يوجد هذه المادة الأصلية . ولم يزعم أحد من أعتى الملاحدة أنه هو أو غيره من البشر يستطيع إيجاد المادة أصلا من العدم .

وبهذا يتبين ما في هذه الأقوال من تناقض ذاتي ؛ حيث يقصد منها إنكار الإله مع أنها تتضمن ضرورة ولزوماً الإقرار به كموجد أول لأصل المادة .

أما دعوى خلق الحياة من المادة الخام فهو وهم كاذب ألقـــــــــاه الشيطان في قلوب بعض الناس في القرن الماضي ، لكن سر خلق المادة الحية في أدنى صورها ظل مستغلقاً على الناس حتى اليوم ، وقد أصبح من اليقين التجريبي أنه سيظل كذلك إلى الأبد ؛ بسبب فطرة الإنسان المحدودة العلم والقدرة ، كما قال جوليان هكسلي فيما سبق . وسيظل التحدي القرآني قائماً خالداً قاطعاً صادقاً إلى الأبد (يأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) الحج ٧٣ ــ ٧٤ .

... ونخلص مما سبق كله إلى أن التبعيين لمذاهب الإلحاد المادية كلها ــ بخاصة الماركسية ــ يتبعون فكراً نشأ في ظروف خاصة في أوربا في القرن التاسع عشر ، كرد فعل عنيف لضلالات الكنيسة النصرانية بها . وقد بيّن العلم التجريبي الحديث تناقض هذا الفكر الإلحادي في ذاته ، وتناقضه مع مقررات العلم الحديث ، وتناقضه المنهجي في قضية الألوهية من حيث رفضه منهج الاستدلال على وجود الخالق بآثار النظام المحكم في الكون مع أخذه بنفس المنهج في كثير مما يقوم عليه علمه المادي . فهو فكر متخلف باطل قام على الغرور الكاذب ونشوة العلم السطحي الناقص ، وارتبط بظروف خاصة في أوربا كرد فعل على ضلالات الكنيسة ومحاكمها التفتيشية وسيطرتها الباطلة على رقاب الناس .

فما للمجتمعات الإسلامية وهذا الباطل المتراكم كله ؟ وأين هو من (التقدم) و (الحضارة) في مفهومها الصحيح ؟ أما آن لأتباع هذا الفكر الإلحادي الضال ــ في بعض بلادنا الإسلامية ــ أن يفيقوا من ضلالاتهم وأوهامهم الباطلة ليزنوا الأمور بميزان صحيح فيتبين لهم ما في (الإسلام) من الحق والهدى ، فينيبوا إليه ويتوبوا من ردتهم عنه ، ويعلنوا براءتهم مما كتبوه في تزيين الإلحاد والكفر والفسوق والعصيان ؟ نسأل الله تعالى الهداية والرشاد والثبات على الحق حتى يأتينا اليقين .

وإنا لنجد أنه من المناسب أن نختم هذا البحث بقصة رواها العالم الهندي المحقق وحيد الدين خان عن المرحوم الدكتور عناية الله المشرقي الذي كان من أعظم علماء الهند والعالم في الطبيعة والرياضيات ، فقد روَى أنه سأل الفلكي المشهور السير جيمس جينز عن سبب إيمانه بالله ، فأخذ يحدثه عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، ومداراتها ، وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة — يقول عناية الله المشرقي : فأخذ يحدثني حتى شعرت بقلبي يهتز من هيبة الله وجلاله ، أما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول : « يا عناية الله ، عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي ، وعندما أبكي أمام الله وأقول له : إنك لعظيم ، أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين ، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي ، وقلت له : لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس (القرآن الكريم) ، فلو سمحتم لي

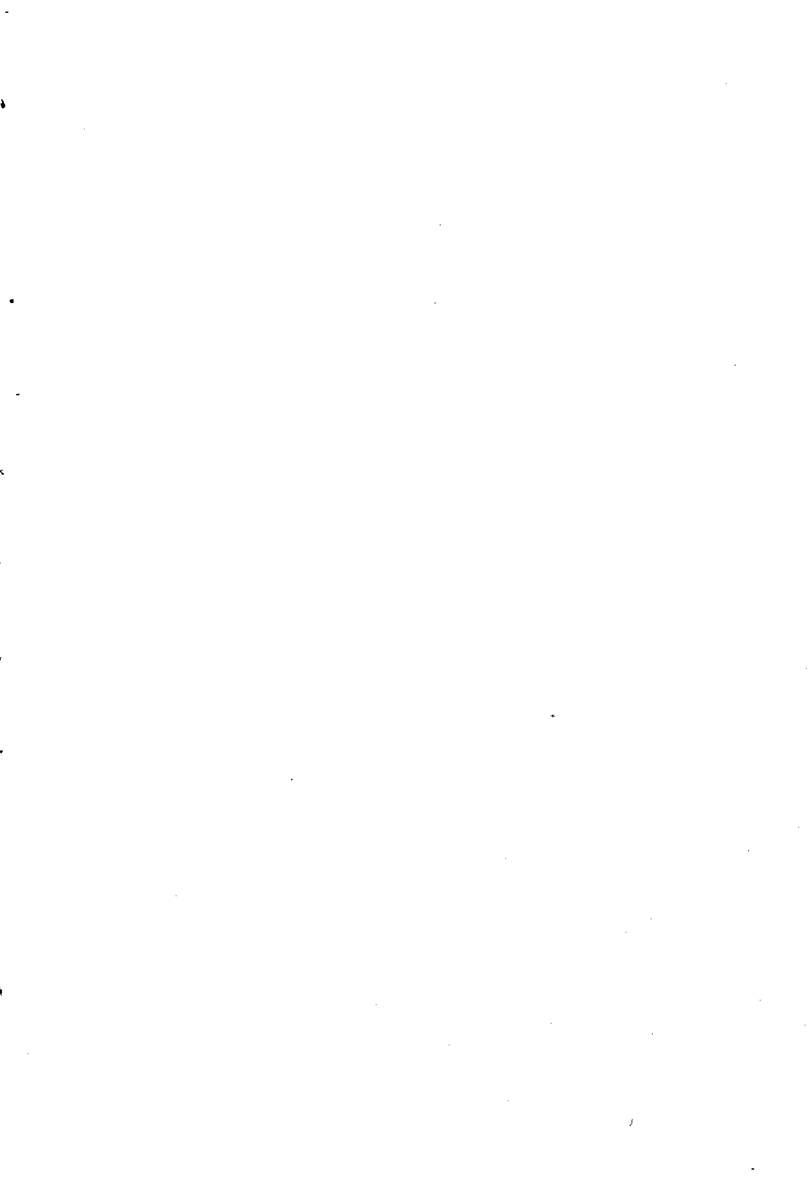
لقرأتها عليكم . فهز رأسه قائلا بكل سرور ، فقرأت عليه معاني قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) فاطر ٢٧ — ٢٨ . فصرخ السير جيمس قائلا : « ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟ مدهش وغريب ! وعجيب جداً ! ! إنه الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين عاماً ، من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى به من عند الله » . واستطرد السير جيمس جينز قائلا : لقد كان محمداً أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن (الله) هو الذي أخبره بهذا السر . . مدهش ! وغريب ! وعجيب جداً (١) .

وهذا يدل على أن القرآن الكريم يحتوي من الآيات ما لو بين لذوي العقول من الناس لقادهم — بإذن الله — إلى أنه هو الحق اليقين الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) الإسلام يتحدى ص١٥٢ — ١٥٣ عن مجلة (نقوش الباكستانية) وراجع كتاب (النجوم في مسالكها) للسير جيمس جينز ، ترجمة. الدكتور أحمد الكرداني ، لجنة التأليف والترجمة .

ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فصلت ٤٢ ؛ لأنه نزل (تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل ٨٩ ، وصدق الله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) فصلت ٥٣ ، (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ق ٣٧ .





دار الاصفهاني وشركاه للطباعة - جدة